

الحجاء على الدين

تصنيف
الامام ابو جعفر محمد بن علي بن محمد بن الحسين
للتوفيق مفسر

المجلد الأول

مطلب من

مكتبة وظيفية "كربلاء قوترا" سماراغ

اندونيسيا

إحياء علوم الدين

للإمام الفخر الرازي

مع مقدمة في التصوف الإسلامي ودراسة تحليلية لشخصية الفخر الرازي
وفلسفته في الإحياء

بمقدم

الدكتور بدوي طنبات

الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم
بجامعة القاهرة

الجزء الأول

مكتبة وطبعة "كرياطة فوترا" سمراغ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الغزالي وأخيه، علوم الدين

تمهيد في التصوف الإسلامي :

- ١ -

جاء الإسلام على فترة من الديانات ، وبث محمد صلوات الله وسلامه عليه على فترة من الرسل ، ليعيد لمقيدة التوحيد صفاءها وبقائها ، ويطهرها من أدران الشرك والوثنية ، وليعدل زين البشرية في عقائدها وعبادتها ومعاملاتها ؛ وليرسى القواعد الأساسية التي تقوم عليها صلة الإنسان بربه ، وتنهض بها علاقته بأخيه الإنسان ؛ وليرسم للناس مقاييس السلوك ، ويتم مكارم الأخلاق ؛ ويضع بكل ذلك دستوراً للمجتمع قوى سليم ، تصان فيه حقوق الإنسان وحرياته ، وتحدد فيه أعباؤه وتكاليفه في المجتمع الذي يعيش فيه .

وكان في تعاليم الإسلام ونصوص القرآن أكبر باعث على تنمية الضمير الإنساني .

قد جعلته تلك التعاليم يعتقد أن عليه رقيباً حسيباً : « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » ، وهو يبعد الله كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه ، وهو الذي : « بَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » . وبذلك يعلم أنه لو خُلِّيَ بينه وبين المحصية لما اقترفها ، لأنه يرى بضميره ذلك الرقيب في السر ، كما يرى آياته ماثلة شاخصة ، ويراه في جنح الظلام ، كما يرى الذين يخشام في راحة النهار وأنها : « إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ » .

وخلاصة مبادئ الإسلام مبدآن : عملٌ للدنيا وعملٌ للآخرة . يتلخصان في قوله تعالى : « وَأَبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَعِيمَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَخْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ » . وقول الرسول : « أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، وأعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

ومقتضى العمل للدنيا أن يكون الإنسان فرداً فصلاً يؤثر فيها حوله ، ويتأثر بما حوله . وليس للحق مناص من خوض معترك الحياة ، يضطرب فيما يضطرب فيه الناس ، ساعياً في رزق ، أو طالباً لجد وكرامة ، وتلك سنة الحياة وطبيعة الأحياء ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً مادامت السموات والأرض .

وإذا وجدت فكرة التبتل والاقطاع شيئاً من الدعوة إليها ، فإن في النصوص الصريحة من الكتاب والسنة ما يؤيد فكرة العمل وما يبحث عليها وبطالها بها في إصرار وتوكيد ، حتى تصبح فكرة التبتل والاقطاع وسيلة لكبح جماح النفس ، واللباقة في طلب الحياة والحرم عليها ، واستسلام النفس للزوات وحسب الشهوات .

وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أصدق شاهد على ذلك ؛ وهو القدوة لكل مسلم ، وأقرب الخلق إلى الله سبحانه وتعالى ؛ ومنتهى القول فيه أنه إنسان كامل : « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » .

وآثاره صلى الله عليه وسلم في العمل والكسب كثيرة ، منها قوله : « من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد في سبيل الله ، ومن طلب الدنيا حلالاً في عفاف كان في درجة الشهداء » . وروى عائشة رضي الله عنها أن النبي صنع شيئاً ترخص فيه ، وتنزه عنه قوم ، فبلغه ذلك . فحمد الله ، ثم قال : ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه ؟ فوالله إني أعلمهم بالله ، وأشد لهم خشية !

هذا العمل نفسه ، وإن كان للدنيا ، وإن كان للفرد يتحرى به خيره أو خير غيره ، عمل للآخرة إذا ما اتبع فيه الحق ، وأنصف نفسه من غيره ، وأنصف الناس منه ، وابتغى بذلك الإنصاف وجه الله والدار الآخرة ، وراعى أصول العقائد والعبادات التي تكون بين العبد وربه ، لا تتجاوز تلك الدائرة إلا قليلاً .

وهكذا كان القصد والاعتدال من سنن الإسلام ، الذي يحمت الغلواء شد المقت . فالإسراف في النفقة رذيلة ، والمسرف من إخوان الشياطين ؛ مع أن بذل المال مطلوب ، وكنزه يوجب العقاب : « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالنِّصَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ، يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ » . ولكن الذي يضيع ماله على خلاف مقتضى العقل والشرع ، ولو في الخير كبناء المساجد ؛ سفيه يبنّي الحجر عليه ومنعه من التصرف في ماله .

والذي يعنت نفسه في ضروب العبادات ويبالغ فيها مسرف ، كالمثبت الذي لا يقطع أرضاً ، ولا يبقى ظهراً . ومثله سواء بسواء المقبل على الدنيا ، الماكف على لذتها ، التهاكف على عرضها الزائل ، الذي شغل بها عما عند الله ، وغفل عن حق ربه ، وحق دينه ، وحق غيره فيما عنده .

كذلك كان الإسلام ، وكذلك كانت سماحة الإسلام : فرض على المسلم صلاة وزكاة وصوماً وحجاً ؛ وكتب عليه جهاداً لا يقوى عليه إلا بحسن التدبير الذي يستلزم صحة الأبدان وصحة العقول ، وإعداد المال والرجال ، من غير طغيان حق على حق ، أو إثارة العاجلة على الآجلة .

وسار المسلمون هذه السيرة في الصدر الأول ؛ حتى آل الأمر إلى ملك عضوض ، أصبحت فيه السياسة فناً لا يتخرج فيه عن الوسيلة في التماس الغلبة ، وطفئت المادية على رجال الحكم ، وقدم في ذلك رعاياهم ، فأقبلوا على الدنيا وعكفوا على ضروب الخداع والبهو ، واتخذوا الجوارى والقيان ، وسكنوا القصور ، وعمروا الأرض ، واصطنعوا الملاذ التي كان يترفع عنها المسلمون في الصدر الأول ، وحاموا حول الشبهات ، واستهزؤا بها ، وتأولوا في استباحتها آي القرآن وسنة النبي .

وقد كان خلفاء بني أمية سياستان اقتضاهما الحفاظ على الملك في يديهم يتوارثه أبناؤهم وخلفاؤهم ، فهم يتبعون سياسة القمع ويسلمون السيف والعصا مع الخارجين عليهم من أهل العراق الذين كانوا شعبة لعلّ وأهل بيته ؛ وهم يتلونهم بالجفاة التلاظ من الولاة والعمال ؛ على حين يصانمون أشراف الحجاز الذين كانت قلوب الساخطين الناقين على سياسة بني أمية تتطلع إليهم ، فتري الخلفاء يلينون لهم في القول ويتجاوزون عن مسيئتهم ، ويشجعون حياة اللهو والترف فيهم بما يندقون عليهم من العطاء ، ليشتغلوا عن التطلع إلى الخلافة وإلى مناصب الدولة . أما ذوو الجاه الذين مدّ لهم السلطان في الأسباب فظلوا سادرين في لهوم وترفهم . على حين يئس الآخرون من عامة أهل الحجاز وسواد أهل العراق من كل سبب من أسباب الدنيا .

وكان هذا اليأس من المنصب والحرمان من البر والفرار من الفتنة التي حدثت في صفوف المسلمين ، مدعاة لعكوفهم على العبادة والزهادة ؛ فانطوا على أنفسهم ، يتذاكرون كتاب الله وسنة نبيه ، ويشغلون أنفسهم بقصص الوعظ والزهد ، والتصبر بما وعد الله الصابرين من الأجر وجزيل الثواب .

عاد هؤلاء إلى نصوص القرآن والسنة النبوية يستخلصون منها نصوص الترغيب فيما عند الله وابتغاء ثواب الآجلة ليحصلوه منهجهم في الدار القانية ؛ ورأوا الزهد والانصراف إلى العبادة مرقاة الصعود إلى الله وكسب رضاه ، والوصول إلى المعرفة الكاملة بملكوت الله ، وهم يوقنون أن أصرار الملكوت محجوبة عن القلوب التي دنسها حب الدنيا التي استغرق أكثر همها طلب العاجلة ؛ بما فيها من رغد وزينة وجاه وسلطان : « زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالنِّصَةِ وَالْخَمِيرِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَاقِ » .

والأصل هو معرفة الله تعالى ، ثم سلوك الطريق إليه ، فأما أمر الآخرة فيكفي فيه الإيمان المطلق ، فإن للعارف المطيع معاداً مسعداً ، وللجاحد العاصي معاداً مشقياً ، فأما معرفة تفصيل ذلك فليس بشرط في السلوك ، لكنه زيادة تكميل للتشويق والتحذير ^(١) .

وذلك الأصل هو الذي أفنى فيه أولئك زهرة حياتهم ، وهو الذي أنفقوا في التعرف عليه جل ما وهبوا من عقل وتفكير ، وهو الذي ساقهم إلى التدبير في فهم آثار الصنعة ، حتى يتسنى لهم الوصول بها إلى المعرفة الحققة بالصانع ، وتلك المعرفة غاية في ذاتها ، إذ بها يصبح العبد ربانياً ، وفي ذلك تلك الغاية السعادة الحققة ، وكل ما يصبطنه العبد من عمل ومجاهدة إنما هو للوصول إلى تلك الغاية ، غاية المعرفة .

ولا تكون تلك الغاية لمن نظر إلى غير الخالق ، لأن النظر إلى غيره عمى عنه ، وغفلة عن طريقه ، ولا يحمل بالحر المرید أن يتذلل للعبيد ، كيف وهو يجد عند الله كل ما يريد ^(٢) ، وإذا انقطع العبد إلى الله تعالى بالسكينة فأول ما يفيد الاستغناء به عن الناس .

(١) القرطبي : جوامع القرآن ١٢ (طبعة الرحاية - القاهرة ١٣٥٢ هـ)

(٢) راجع فوات الوفيات لابن شاكر ٣/١ (مطبعة بولاق - القاهرة ١٢٩٩ هـ) .

والطريق إلى الله يستلزم أمرين : الملازمة والمخالفة . وللملازمة ملازمة ذكر الله تعالى ، والمخالفة لا يشغل عن الله ، وهذا هو السفر إلى الله . وليس في هذا السفر حركة لا من جانب المسافر ولا من جانب المسافر إليه ، فإنهما معاً . أو ما سمعت قوله تعالى ، وهو أصديق القائلين : « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » ١٩ .

بل مثل الطالب والمطلوب مثل صورة حاضرة مع مرآة ، ولكن ليست تتجلى في المرآة لصدا في وجه المرآة ، فتق صقلتها تجلت فيها الصورة ، لا بارتحال الصورة إلى المرآة ، ولا بحركة المرآة إلى الصورة ، ولكن بزوال الحجاب ، فإن الله تعالى متجل بذاته لا يختفي ، إذ يستحيل اختفاء النور ، بل بالنور يظهر كل خفاء ، والله نور السموات والأرض .

وإنما خفاء النور عن المبدقة لأحد أمرين : إما لكدورة في المبدقة ، وإما لضعف فيها ، إذ لا تطبق احتمال النور العظيم الباهر ، كما لا يطبق نور الشمس أبصار الخفافيش . . . والنور يتجلى في بعض المرايا أصح وأظهر وأقوم وأوضح ؛ وفي بعضها أخفى وأميل إلى الأعوجاج عن الاستقامة ، وذلك بحسب صفاء المرآة وصفائها وصحة استدارتها ، واستقامة بسط وجهها ، فلذلك قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله يتجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة ^(١) » .

ومن هذا الدليل المادى كان الاتجاه العملى إلى جلاء النفس وصقلها ، وسبيل ذلك مجاهدة النفس وإحكام مخالفتها بالانصراف عن الدنيا ، والمكوف على العبادة ، وترويضها بطول الخلوة والسياسة والصوم وقلة الطعام في الفطر وكثرة الذكر ، وغير ذلك من وسائل حمل النفس على غير ما تشهى .

ويبدو من هذا أن السلبية كانت الطابع العام ، ومحاربة النفس كانت الأصل عند أولئك الزاهدين في الدنيا وزينتها .

وكانت بعد ذلك حركات عقلية اتضحت أودية التفكير الإسلامى ، ونهت المسلمين إلى ألوان من المعرفة لم يكن لهم من أكرها حظ ؛ وضروب من التفكير لم يسبق لهم مزاولتها ، والأمة الإسلامية تتطلع إلى احتلال منزلتها ؛ وبناء مدينتها على تلك الأسس الوطيدة التى أرسى دعائمها الإسلام ، وهو دين البشرية الذى بعث صاحبه إلى الأسود والأحمر : « لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ » وهو رسول الله وخاتم النبيين .

ولذلك كان على حماة هذا الدين والقوامين عليه أن يطوفوا بكل جهات المعرفة ، ويتقوا على ما عند غيرهم من أبناء الأمم من ضروب المعرفة وألوان التفكير ، حتى لا تخفى عليهم زاوية من زوايا العقل ، ولذلك لم يقفوا عند حدود النصوص ليؤمنوا بها إيماناً مطلقاً ، ولم يمدوا يكتفون بالإيمان المجرد . بل أحسوا بضرورة البحث فى أسس هذا الإيمان وضرورة تطبيقه على العقل . وقد وجدوا فى نصوص الدين ما يحث على ذلك النظر وما يشجع على إعمال العقل والتفكير

وكانت هنالك أم سبقتهم إلى البحث والتفكير فى الكون وخالقه ، والحياة وما وراءها ، والإنسان فى

حياته وموته وبعثته . وكان لتلك الأم تراث خلفه طلائعها، وورثته حكاؤها الإنسانية لتتظرف فيه ، وتقص منه أو تزيد عليه . ما وسعها الزيادة وما وسعها التهذيب والتصحيح .

وجد المسلمون في جمع ذلك التراث ونقله إلى لسانهم العربي ، حتى إذا اجتمع لم منه شيء كثير ، أخذوا في تقيمه ومدارسته ، وجدوا في تمحيصه وتطبيقه على ما ورثوه من دين ومعرفة وعقيدة وعبادة ومعاملة وسلوك .

وقد بلغ هذا التيار مداه في القرنين الثالث والرابع الهجريين . ففي هذين القرنين كانت أودية العلم تنموج بتلك التيارات الفكرية الطارئة التي حذقها كثير من المسلمين ، وعظم بذلك سلطان العقل ، وطمح الجدل بين العلماء طنائنا كاد يُنسَى كثيرا منهم الأصل القوي ورثوه عن إسلامهم وعروبته .

فالحكمة الهندية وفلسفة فارس وفلسفة يونان ومنطقهم ، كل ذلك أصبح يجري على ألسنة العلماء والتكلمين من المسلمين وبشغل بالهم ، ويدعهم إلى البحث في دينهم وأصول عقائدهم على ضوء هذه المعرفة التي جذت على بيتهم ووجد فيهم من يتعصب لتلك الثقافات الطارئة ، ومن يؤثرها على ثقافته الأصيلة ، إلى جانب الذين وصلوا هذه جنتك ، وكوتونا من هذا المزاج زاداً جديداً للعقل العربي الإسلامي .

وطاد الأمر إلى أولئك الزهاد الذين صدقوا عن الدنيا وزينتها ، ولم تعد السلبية التي كانوا يؤثرونها تقبل منهم في هذا المجمع المضطرب ، فقد أصبح الفكر دعامة كل منهج من مناهج الحياة ، سواء أكان ذلك المنهج منهجاً نظرياً ، أم منهجاً عملياً . ولذلك وجدوا أنفسهم في حاجة إلى فلسفة فكرتهم في الحياة حتى تنهض على أسس تماثل تلك الأسس التي أقام عليها غيرهم سلوكهم في الحياة .

الإمام الغزالي

وقد أنجب القرن الخامس الهجري طائفاً من أعلام الفكر الإسلامي ، هو حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد ابن محمد الغزالي ، ويحمل بنا أن نشير إلى شيء من تاريخ هذا الإمام ، لتقف من هذا التاريخ على العوامل التي تظلمت على تكوين هذه العقيدة القريضة ، وألوان الثقافة التي احتشدت في ذهنه ، وجعلته أهلاً لأن يحتل تلك المنزلة الجليلة بين زهاد المسلمين ومتصوفهم وأنباء مفكرهم .

وفي مدينة طوس^(١) وفي منتصف القرن الخامس الهجري (٤٥٠ هـ) ولد أبو حامد بن أبي عبد الله القلب واليد ، بفزل الصوف وبيعه ، وبخلف في أوقات فراغه إلى العلماء في حلقاتهم . والتقيا في دروسهم ، والوعاظ في مجالسهم ، يستمع إليهم ، ويتطلع إلى صنيعهم في التعليم والإفادة ، ويلاطفهم بما يفضل من قوته وحاجته . وكان

(١) طوس : مدينة بخراسان . بينها وبين نيسابور مسيرة فراسخ ، فحما المسلمون في أيام عثمان بن عفان ، وبها قبر علي بن موسى الرضا ، وقبر هارون الرشيد ، وبها آثار إسلامية جليلة .
قال ياقوت : خرج من طوس من أئمة أهل السلم والفق مالا يحصى ، وحبيبك بأبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي وأبى الفتح أخيه .. (معجم البلدان ٦/٢١١)

تأثره بتلك المجالس وما يدور فيها من فنون العلم والوعظ عظيمًا ، جعله يضرع إلى الله أن يهب له ولها من صلبه مجلس مجالس أولئك الفقهاء والوعاظ الذين يملكون الناس أمور دينهم ، ويبصرونهم بخير الحياة الدنيا والآخرة . واستجاب الله لدعائه فرزقه ولدين : أحدهما أبو حامد الذي نتحدث عنه ، والآخر أخوه أحمد الذي اشتغل بالوعظ وبرع فيه إلى درجة كبيرة (١) .

ولما حضرت الوفاة ذلك الأب الصالح وصى بأبي حامد وأخيه صديقًا له من أهل التصوف . وقال له : إن لي لأستاذًا عظيمًا على ما فاتني من التعلم ، وأشتهى استدراك ما فاتني في وهى هذين ، فسلمهما ، ولا عليك أن يتفقد في سبيل ذلك جميع ما أخلفه لهما .

وأخذ الصوفي وصيته ، وأقبل على تسليمهما ، حتى فنى المال القليل الذي خلفه أبوهما ، وتمذر عليه المضي في تسليمهما أو تقديم الطعام الذي يقتاتان به . ولم يجد من السبل ما يحفظ به عليهما حياتهما إلا أن يلحقهما بمدرسة من تلك المدارس التي تقدم لطلاب العلم فيها الغذاء والكساء . وقد أحسن الرجل بذلك صنمًا إلى هذين التيسين الذين لا عائل لهما ولا مال بينهما على الحياة ، ولذلك كان النزالي يقول وهو يذكر هذا للصنيع : « طلبنا العلم لغير الله فأي أن يكون إلا الله » . ومعنى ذلك أنها طلباء ليكون وسيلة للعيش ، يُجرى عليهما بسببه ما يُجرى على طلبة العلم ، فكان أن أوصلهما إلى الناية الحقيقية من طلب العلم ، وهى معرفة الله تعالى حق المعرفة .

هذا أبو حامد يقرأ في صباه طرقًا من الفقه ببلده (طوس) ثم يسافر إلى (جرجان) (٢) ويأخذ عن أبي نصر الإسماعيلي ، ثم يرجع إلى طوس ، فيقيم بها إلى ما شاء الله حتى يرتحل إلى (نيسابور) (٣) فيلازم إمام الحرمين أبا المعالي الجويني ، ويجد في طلب الفقه ، فيبرع فيه وفي الجدل والمنطق والفلسفة وبقية كلام أهل تلك العلوم ، ويتصدى لرد عليهم ، وإبطال دعاوهم ، ثم يقصد (المسكر) بعد وفاة إمام الحرمين ، ويلقى فيها الوزير نظام الملك ، وينظر في مجلسه الأئمة والعلماء ، ويقهر مناظريه ، حتى يمتدح الجميع له بالفضل ، ويأمره نظام الملك بالتوجه إلى (بغداد) والتدريس في المدرسة النظامية ، فيقدمها سنة ٤٨٤ هـ وفي تلك المدرسة يعظم مجده ، ويتألق نجمه ، ويذيع صيته ،

(١) هو أبو الفتح أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي النزالي للقب مجد الدين . قال ابن خلكان : كان واعظًا ملبح الوعظ ، صاحب كرامات وإشارات ، وكان من الفقهاء غير أنه مال إلى الوعظ ، فغلب عليه ، ودرس بالمدرسة النظامية نيابة عن أخيه أبي حامد . ترك التدريس زهادة فيه ، واختصر كتاب أخيه أبي حامد للسمي بإحياء علوم الدين في مجلد واحد ، وسماه (باب الإحياء) وله تصنيف آخر سماه (التخيير في علم البصيرة) وطاف البلاد وخدم الصوفية بنفسه ، وكان مائلًا إلى الاعتقاد والزهدة . . وتوفي أحمد بجزون في سنة عشرين وخمسة مائة [انظر وفيات الأعيان ١ / ٢٠٧ - مطبعة عيسى البابي الحلبي - القاهرة ١٣٥٥ هـ]

(٢) جرجان : مدينة عظيمة بين طبرستان وخراسان ، بعض أهلها من هذه وبعضهم من هذه . قيل إن أول من أحسنت بناءها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ، وقد خرج منها صفوة من الأدباء والعلماء والفقهاء والمحدثين ، ولها تاريخ ألفه حزة بن يزيد السهمي . قال الإسطخري : أما جرجان فإنها أكبر مدينة بنواحيا ، وهي أقل ندى ومطرًا من طبرستان ، وأهلها أحسن وقارًا وأكثر مروءة من كبرائهم . ولجرجان مياه كثيرة وضياء عريضة . وليس بالمعزوق بعد أن تجاوز العراق مدينة أجمع ولا أظهر حنا من جرجان (راجع مجمع البحان ٣ / ٧٥ طبعه السادة ١٩٠٦ م)

(٣) نيسابور : بلد كثير القواكة والخيرات ، كان المسلمون قد فتحوها في أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه ، والأمير عبد الله بن عامر ابن كرز في سنة ٣١ سلما ، وقيل إنها فتحت في أيام عمر رضي الله عنه على يد الأخنف بن قيس ، وإنما انفتحت في أيام عثمان ، فأرسل إليها عبد الله بن عامر ففتحها ثانية .

حق يقال إن مجلس النزالى كان يحضره ثلثمائة محاماة من أكابر العلماء . وأصبح مضرب المثل فى التدريس والإفادة ؛ تشد إليه رجال طالبى العلم وأهل الورع . ولكن نفسه تصد عن المنصب والجاه ، ويرى أن العلم مع شرفه ، والتعليم انتهى يقوم به ، غير خالصين لوجه الله تعالى ، بل باضهما ومحركهما طلب الجاه وبعد الصيت ، فتيقن أنه على شفا جرف هار ، وأنه قد أشفى على الهلاك إن لم يسرع بتلافى ما هو فيه .

وحينئذ يظهر عزمه على الخروج إلى مكة ، وهو يدبر فى نفسه السفر إلى الشام ، ولكنه لا يصرح بنيتة خفراً أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمه المقام بالشام ، فيتلفط بلطائف الحيل فى الخروج من بغداد وهو ينوى ألا يعاودها أبداً ؛ واستهدف بذلك لأئمة أهل العراق ، إذ لم يكن فيهم من يجوز أن يكون الإعراض عما كان فيه سبياً دينياً ، قد ظنوا أنه بلغ المنصب الأعلى فى الدين ، وكان ذلك مبلغهم من العلم .

وقد ارتبك الناس فى الاستنباطات ، وظن من بعد عن العراق أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة ، وإما من قرب من الولاة ، وكان يشاهد إلحاحهم فى التعلق به والانكباب عليه وإعراضه عنهم ، وعن الالتفات إلى قولهم ، فيقولون : هذا أمر سماوى ، وليس له سبب ، إلا عين أصابت الإسلام وزمرة أهل العلم !

وقارق بغداد ، بعد أن فرق ما كان معه من المال ، ولم يدخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال ، ترخصاً بأن مال العراق مُرَصَّدٌ للمصالح لكونه وفقاً على المسلمين ، فلم يرفى العالم مالا يأخذه العالم لسياله أصلح منه . ودخل الشام ، وأقام به ما يقرب من سنتين لا يشغل له إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة ، اشتغالا بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، فكان يعتكف فى مسجد دمشق ، يصعد منارته طول النهار وينلق بابها على نفسه ، حتى رحل إلى بيت المقدس ، يدخل كل يوم الصخرة ، وينلق بابها على نفسه .

ثم تحركت فيه داعية الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة ، وزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه ، فسار إلى الحجاز ؛ حتى جذبته الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن فعاوده بعد أن كان أبعد الخلق عن نية الرجوع إليه .

وفى تلك الرحلات صدفت نفسه عن الدنيا ، ولبس الخشن من الثياب ، وقلل طعامه وشرا به ، وصار يطوف المشاهد ويزور المقابر والمساجد للعبظة والاعتبار ، ويروض نفسه ويجاهدها جهاد الأبرار ، ويكلفها مشاق العبادات ، ويبلوها بأنواع القرب والطاعات ، وفى هذه الأثناء ألف هذا الكتاب (إحياء علوم الدين) حتى رجع إلى بغداد فحدث به .

عاد النزالى بعد ذلك إلى خراسان ، وانقطع للعبادة ، وآثر العزلة حرصاً على الخلوة وتصفية القلب للذكر ، حتى طلب إليه فخر الملك بن نظام الملك أن يقوم بالتدريس بالمدرسة النظامية فى نيسابور ، ولكن النزالى تأبى وقال : أريد العبادة ! فقال له : لا يحمل لك أن تمنع المسلمين الفائدة منك ! فدرس مدة يسيرة .

يقول النزالى فى ذلك : ترخصت بينى وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة ، تمللاً بالمعجز عن إظهار الحق

بالحجة ، فقدّر الله تعالى أن حرك داهية سلطان الوقت من نفسه ، لا بهريك من خارج ، فأمر أمر الزام بالتهوض إلى « نيسابور » لتدارك هذه الفترة . وبلغ الإلزام حداً كان يشهق - لو أصررت على الخلاف - إلى حد الوحشة . فخطر لي أن سبب الرخصة قد ضعف ، فلا ينبغي أن يكون باعثك على ملازمة العزّة الكسل والاستراحة . وطلب عز النفس وصونها من أذى الخلق ، ولم ترخص نفسك بسر معاناة الخلق ، والله تعالى يقول : « أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ؟ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ... » الآية . ويقول عز وجل : « وَلَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنْتُمْ نَصَرْتُمْ وَلَا يُبَدِّلُ كَلِمَاتِ اللَّهِ ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأُرْسَلِينَ » ... فشاورت في ذلك جماعة من أرباب القلوب والشهادات ، فاتفقوا على الإشارة بتك العزّة ، والخروج من الزاوية ، وانضاف إلى ذلك منامات من الصالحين كثيرة متواترة ، تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد ، قدرها الله تعالى على رأس هذه اللآلئ ، وقد وعد الله سبحانه بإحياء دينه على رأس كل مائة ، فاستحكم الرجاء ، وطلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات ، ويُسّر الله تعالى الحركة إلى (نيسابور) للقيام بهذا المهم في ذى القعدة سنة تسع وتسعين وأربعمائة ...

قال : وأنا أعلم أني وإن رجعت إلى نشر العلم ، فارجعت ؟ فإن الرجوع عود إلى ما كان ! وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي به يكسب الجاه ، وأدعو إليه بقولي وعمل ، وكان ذلك قصدي ونيتي . وأما الآن فلدعوي إلى العلم الذي به يُترك الجاه ، ويعرف به سقوط رتبة الجاه ، هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي ، ولم الله ذلك مني !

وأنا أبني أن أصلح نفسي وغيري ، ولست أدري الأصل إلى مرادى أم أخترت دون غرضي ؟ ولكني أومن بإيمان يقين ومشاهدة أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وأنني لم أتحرك ، لكنه حركني ، وأنني لم أعمل ، لكنه استعملني ، فأسأله أن يصلحني أولاً ، ثم يصلح بي ، ويهديني ، ثم يهدي بي ^(١) .

وأخيراً يعود النزالي إلى طوس بعد اللدة التي قضاها في نيسابور ، ويتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء ، وخاتمه للصوفية ، ويوزع أوقاته على وظائف من ختم القرآن ، ومجالسة الصوفية ، والتدريس لطلبة العلم ، وإدامة الصلاة والصيام وسائر العبادات ، حتى توفي في رابع عشر جمادى الآخرة سنة ٥٥٥ هـ .



ذلك ما استطاعت صفحات التاريخ أن تسيه من حياة أبي حامد الرجل في هذه الحياة الدنيا . أما عقليته ، فقد رأينا أن هذه السطور لا تكاد تصورها الصورة السكاملة ، وإن نجد في هذه الترجمة إلا لمحات من قهره وورعه وعلمه وزهده ، وقد لا يجد القارىء في هذه الصورة شيئاً غريباً ، إنها صورة عادية تمثل رجلاً نشأ صغيراً ، فزهد كرها أو طوعاً ، ونصوف راصياً أو مضطراً .

وتلك اللامح كثيرة الوجود في البيئات الإسلامية في عصر أبي حامد وفي غيره من العصور الإسلامية .

(١) للتفد من الضلال للنزالي : ص ١٤٤ (الطبعة الثانية : القاهرة : ١٩٥٥ م) .

وإنك لو أجد العلم الدينى يطلبه الفقير ، والعلم العربى يجرى فى المجالس والمدارس والمساجد ميسراً لطلابه ، ولا يكاد يكلفهم نفقة ولا جهداً .

بل ربما كان طلب هذا العلم باباً من أبواب الرزق ، وسبيلاً من السبل التى يسلكها الكثيرون من طالبى الحياة لأجل القوت ، حتى يقروا على السعى والكد فى طلبها ، أو حتى يفتح لهم هذا العلم نفسه باباً ، ويهين لهم بين العلماء منزلة تهين لهم منصباً وجاهاً ، ينالون به الحظوة والزلفى عند أصحاب الملك والسيادة والسلطان ، فقدر لهم أخلاف العلماء ، وينالون بالعلم ما يشتهون من زينة الدنيا وترفها . وهذا ما تؤكد قصة الصوفى مع أبى حامد ، بعد استهلاك القليل الذى خلفه أبوه له ولأخيه ؛ واضطراره لأن يدخلها مدرسة كأنهما من طلبية العلم . ويؤكد أيضاً كلمة الغزالى السابقة : « طلبنا العلم لغير الله ، فأبى أن يكون إلا لله ! »

ولا شك أن كثيراً من شباب المسلمين قد سلك تلك السبل التى سلكها أبو حامد ، ولكنهم لم يتمتعوا بما تمتع به من العقلية الصافية والذكاء الخارق والإخلاص للعلم ، والتفانى فى طلب الحقيقة ، بسلوك سبيلها ، وهو سبيل شاق طويل ، لا يقوى على سلوكه إلا أولو العزم من الباحثين الصابرين ، الذين إذا التوى بهم طريق ، ووجدوه لا يوصل إلى الغاية ، جددوا العزم وشحذوا قوتهم وطلبوا غيره ، ووجدوا فى هذا العناء وفى تلك المصابرة والمثابرة متعة لنفوسهم وراحة لعقولهم الجادة فى طلب المعرفة .

الشك عند الغزالى :

عاش الغزالى فى القرن الخامس الهجرى ، وهو القرن الذى فضجت فيه العقول واستوت أودية التفكير وتعددت روافده ، بين أصيل ودخيل ، وآخذ من هذا وذاك . واختلفت أساليب المعرفة ، ومناهج البحث عن الحقيقة التى ينشدها كل مفكر . وكثر المتكلمون فى العقائد وفى أصول الدين ، وفى الطبيعة وما وراء الطبيعة ، وفى المذاهب والديانات ، وفى أفعال العباد وغاياتهم .

وكثر المتكلمون فى كل مسألة من تلك المسائل ، واختلفوا فيما بينهم اختلافاً عظيماً ، حتى ليكاد التوفيق بين تلك الآراء المتباينة ، والمذاهب المتباعدة يصبح ضرباً من المستحيل .

وتبدو الصعوبة فى أعظم صورها أمام كل باحث يريد أن يخطط لنفسه خطة بين هذه الخطط الكثيرة والأكثر كثرة يتخيرون لأنفسهم طريقة من الطرق الملوكة يكفون عليها ؛ ويفقهون نهجها ، ثم ينالون بها ما وسعتهم المغالاة . وربما كانت مقالاتهم دون غيرها من المقالات ، وربما كانت أدلتهم دون أدلة غيرهم ، ولكنهم فى الواقع يؤثرون السلامة بالبحث فى دقائق إحدى النواحي ، على حين يغفلون غيرها أو يلغونها بالتمام ، ولم يتسع لهم الوقت للإمعان فى المناهج الكثيرة التى تباين منهجهم ومقاتلهم .

وأمام هذا الغلو فى الاعتقاد والتمصب لرأى أو منهج أو طريق سلوك ، ورفض كل ما عدا أولئك ، يجد الباحث المجدد نفسه أمام تيار من التردد ، وسيل من الشك فى أى الطرق يختار لنفسه ، إن كان لا يرى التقليد فى إثبات هذا المذهب على ذلك .

وجد النزالي نفسه بين هذه للذاهب التي لا تكاد تحصى ، وأمام تلك الاتجاهات التي يستحيل التوفيق بينها ، فبدأ حيث بدأ غيره بلم بأطراف من الثقافة السائدة ، ونفسه تتطلع للمزيد ، وإذا المزيد الذي يريده اليقين يسلمه إلى شك طويل ، وإذا هذا الشك يبدو أمامه في كل أثر ، ولكنه لا يسرع إلى النفي ، ولا يسرع إلى اليقين ؛ فإن قلبه وعقله لا يرضيان بما رضى به غيره من الاتباع . ولذلك اضطره الشك إلى المكابدة في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق ، مع تباين المسالك والطرق ، وإلى الجرأة من الارتفاع عن حضيض التقليد إلى بقاء الاستبصار .

إن اختلاف الخلق في الأديان والمذاهب ، سم اختلاف الأمة في المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق - كما يرى النزالي - بحر غرق فيه الآكثرون ، وما نجا منه إلا الأقلون . وكل فريق يزعم أنه الناجي ، و « كل حزب بما لديهم فرحون » ، وهو الذي وعد به سيد المرسلين ، صلوات الله عليه وهو الصادق الصدوق حيث قال : « ستفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة » فقد كان ما وعد أن يكون !

ورأى النزالي أن أصحاب الأديان كان التقليد ، كما كانت الوراثة ، السبب في نشأتهم على اليهودية أو النصرانية أو الإسلام ، فصبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهود ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام . والحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ! » .

ويحكى النزالي عن نفسه في « المنقذ من الضلال » أنه لم يزل في عنقوان شبابه ، منذ راهق البلوغ قبل العشرين إلى أن أناف سته على التحسين ، يقتحم لجة هذا البحر العميق ، ويخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوف الجبان الخنور ، ويتوغل في كل مظلمة ، ويتهم على كل مشكلة ويتقحم كل ورطة ، ويتفحص عن عقيدة كل فرقة ، ويستكشف أسرار مذهب كل طائفة ليميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، لا يفادر باطنياً إلا أحب أن يطلع على بطائنه ، ولا ظاهرياً إلا أراد أن يعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفياً إلا قصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً إلا اجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفياً إلا حرص على الشور على سر صفوته ، ولا متعبداً إلا ترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً معطلاً إلا نجس وراؤه للتنبيه لأسباب جراته في تعطيله وزندقته .

ويقف النزالي عند قول الرسول : « كل مولود يولد على الفطرة . . . » ويتحرك باطنه إلى معرفة حقيقة الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين ، والتميز بين هذه التقليدات التي أوائلها تلقينات ، وفي تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات . فيقول في نفسه : إنما مطلوب العلم بحقائق الأمور ، فلا بد من طلب حقيقة العلم ، ما هي ؟ ويظهر له أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى منه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم . ويعلم أن كل ما لا يعلمه على هذا الوجه ، ولا يتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه . وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني !

فهو يتطلب المعرفة الحقة ، المعرفة التي ترادف اليقين ؛ وكان يوقن في قرارة نفسه بتلك النظرية الثابتة « إن الحقيقة لاتتعدد » ولكنه يرى التعدد في الأفكار والمقالات والأديان والمذاهب ؛ إذن لا يكون الحق إلا ديناً واحداً ، ومذهباً واحداً ، ومقالة واحدة . أو بعبارة أخرى لا يكون المعتقد إلا واحداً ؛ والطريق الحق إليه لا يكون إلا واحداً ؛ والتفكير المستقيم هو الذي يسلم إلى هذه الناية .

ولكن الأديان متعددة ، والمناهج شتى ؛ تفيض بها أودية التفكير ؛ إذن فلا بد أن تكون هناك عوائق ، حالت بين العقول وبين النهج السوي ؛ لآفة أصابتها ، أو علة اعترتها ؛ فكان هذا التصيب للبل والنحل ؛ والناس عبيد لما عرفوا ، وأعداء لما جهلوا .



سبل المعرفة :

قلنا إن النزالي ابتداً طريق المعرفة بالشك فيما هو حاصل لدى بعض العقول ، وفيما هو مسلم به لدى بعضها دون البعض ، وهو يبحث عن طريق الأمان ، ولا أمان إلا بالعلم اليقيني الذي لا يقبل الشك ولا التردد ، وطعمته تأبى التعدد ، فما الوسيلة إلى هذا العلم اليقيني المألزم لفطرة الصافية والعقل السليم ؟

نشد النزالي هذه الوسيلة في الجليات ، وهي الحسيات والضروريات ؛ لتكون الوسيلة في فهم المشكلات ، ليتيقن أن ثقته بالمحسوسات وأمانه من الغلط في الضروريات ، من جنس أمانه الذي كان من قبل في التقليدات ، ومن جنس أمان أكثر الخلق في النظريات ، أم هو أمان محقق لا غر فيه ، ولا غائلة له ؟

وأقبل يجد يبالغ في تأمل المحسوسات والضروريات ، وأخذ ينظر هل يمكنه أن يشكك نفسه فيها ؟ وانتهى به طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسه بتسليم الأمان في المحسوسات أيضاً ، وأخذ يتسع هذا الشك فيها ، ويقول : من أين الثقة بالمحسوسات ؟ إن أقواها حاسة البصر ، وهي تنظر إلى الكوكب فتراه صغيراً في مقدار دينار ، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في القدار . هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ؛ ويكذبه حاكم العقل ويغويه ؛ تكذيباً لاسييل إلى مدافعتة . قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضاً !

لعل سبيل تلك الثقة هو العقليات التي هي من الأوليات ، كقولنا : العشرة أكثر من الثلاثة ، والنفي والإثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد ، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً واجباً محالاً .

هنا لا نجد النزالي سبباً واقعياً واحداً ينفي به الثقة بهذه الحقائق العقلية ، التي يلتقي عندها أصحاب العقول قاطبة ، مع اختلاف أجناسهم وأديانهم ؛ ولكنه رجل شك كما أسلفنا ؛ فلا بد أن يجرى مع مذهبه في التشكيك ، ولكنه لا يستطيع أن ينفي الثقة بالعقليات عن سبيل العقل ، ولا عن سبيل التجربة والحس والملاحظة ، وإذا ذلك يلتبس الشك من سبيل الجدل والفسطة ؛ ويختزع لذلك قياساً عجيباً ؛ فيزعم أن المحسوسات جادلته وناقشته وحاجته قائلة : بم تأمن أن تكون ثقتك بالمعانيات كثفتك بالمحسوسات ؟ وقد كنت واثقاً بي ، فجاء حاكم العقل فكذبني ؛ ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي ، ولعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر إذا نجلى كذب العقل

في حكمه ، كما نجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه ، وعدم تجلّي ذلك الإدراك لا يدل على استحالة ؟
وتتوقف النفس في جواب ذلك قليلاً ، وتؤيد إشكالها بالنام ، وتقول : أما تركك معتقد في النوم أموراً ،
وتصنيل أحوالاً ، ومعتقد لها ثباتاً واستقراراً ، ولا تشك في تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ ، فتعلم أنه لم يكن لجميع
متخيلاتك ومعتقداتك أصل وباطل ؟ فم ثامن أن يكون جميع ماتعته في يقظتك بحس أو عقل هو حق بالإضافة
إلى حالتك التي أنت فيها ، لكن يمكن أن نطراً عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك كنسبة يقظتك إلى
منامك ، وتكون يقظتك نوعاً بالإضافة إليها ، فإذا وردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ماتعته بعقلك خيالات
لا حاصل لها . ولعل تلك الحالة ماتعته الصوفية أنها حالتهم إذ يزعمون أنهم يشاهدون في أحوالهم التي لم إذا غاصوا
في أنفسهم ، وغابوا عن حواسهم ، أحوالاً لاتوافق هذه المقولات ، ولعل تلك الحالة هي الموت ، إذ قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » فلول الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة ، فإذا مات
الإنسان ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن ، ويقال له عند ذلك « فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ
الْيَوْمَ حَدِيدٌ » .

خطرت له تلك الخواطر ، وهو في غمرة الشك والارتباب ؛ إنه يبحث عن يقين يجعله محور البحث ، ونقطة
يبدأ منها سبيل الأمان ؛ ليسير نحو الغاية المنشودة بخط ثابتة ، لانتقل إلا إذا اطمانت إلى سلامة ما قبلها ، وعرفت
أنها تسير فوق أرض صلبة .

وحاول أن يخلص من هذا الظن ، وأن يقطع الشك باليقين فلم يتيسر له ، إذ لا وسيلة إلى القضاء على تلك
الشكوك إلا بالدليل ، ولم يكن نصب الدليل إلا من تركيب العلوم الأولية ، فإذا لم تكن تلك العلوم الأولية
مسلمة لم يمكن ترتيب الدليل .

إن نقي الاعتماد على الحواس في سبيل إدراك العلم اليقيني اعتماداً على بعض ما يبدو من خداعها قد يكون له
مايسوغه . ولكن هنالك من طرق الكشف ما يمكن معه تصحيح تلك الأخطاء والأوهام ، وقد نبه الغزالي نفسه
إلى شيء من هذا يمكن به تحقيق بعض شبه العارضة . ولكن مذهب إليه من جواز تنفيذ أحكام العقل لا يجد
مسوغاً إلا هذا القياس الذي رأيناه ، وفيه من الضعف ما فيه ؛ إذ أن التفكير السليم إذا خضع للمنطق واعتمد على
المقدمات الصادقة كانت أحكام العقل والنتائج التي تقضى إليها نتائج نهائية في كل زمان وفي كل مكان .

أكبر الظن أن تلك الآراء ؛ كانت رد فعل لما أحدثه الطبيعيون والفلاسفة في بيئات التفكير الإسلامي ، وهيام
بعض القلوبين بآرائهم واعتناقهم إياها ودفاعهم عنها وعن أصحابها ، مباهاة للجمهور الذي قد يجهل كثيراً من تلك
الأفكار الطارئة ، ولا يبي إلا الأفكار التي أخذها عن الإسلام وتراث العروبة ، ورأى الغناء بها عن تحصيل هذا
العلم الطارئ ، الذي لاصلة له بمعتقد ولا أثر له فيه ، ولا سيما أن هذا اللون من المعرفة منسوب إلى جماعة من
القدماء ؛ يعرف عنهم قبل كل شيء أنهم من أهل الوثنية . وقد صرح بهذا الغزالي في التفات ، وأنه رأى طائفة
يعتقدون في أنفسهم التميز عن الأرباب والنظراء بمزيد الفطنة والذكاء ، قد رفضوا وظائف الإسلام من العبادات ،

واستحقروا شعائر الدين من وظائف الصلوات والتوفى عن المحظورات ، واستهانوا بعبدات الشرع وحدوده ، ولم يفتقروا عند توقيفاته وتقيوده ، بل خلعوا بالكلية ربة الدين بفنون من الفنون ، يتبعون فيها رهطاً يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، وهم بالآخرة هم كافرون ؛ ولا مستند لكفرهم غير تقليد سماعي إلهي ، كتقليد اليهود والنصارى إذ جرى على غير دين الإسلام نشؤهم وأولادهم ؛ وعليه درج آبائهم وأجدادهم ، وغير بحث نظري صادر عن التمثيل بأذيال الشبه المضارفة عن صوب الصواب ، والانخداع بالخيالات المزخرفة كلامع الشراب ، كما اتفق لطوائف من النظار في البحث عن العقائد والآراء من أهل البدع والأهواء .

وإنما مصدر كفرهم سماعهم أسماء هائلة كسقراط^(١) وبقرات^(٢) وأفلاطون^(٣) وأرسطوطاليس^(٤) وأمثالهم ؛ وإطناط طوائف من متبعيهم ، وضلالهم في وصف عقولهم وحسن أصولهم ورقة علومهم الهندسية والمنطقية والطبيعية والإلهية ، واستبدادهم ، لفرط الذكاء والفطنة ، باستخراج تلك الأمور الخفية ، وحكايتهم عنهم أنهم مع رزاقه عقولهم وغزارة فضلهم متكرون للشرائع والنحل ، وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل ، ومعتقدون أنها تواميس مؤلفة وحيل مزخرفة . فلما قرع ذلك سمعهم ، ووافق ما حكى من عقائدهم طبعهم ، تجملوا باعتقاد الكفر تحييراً إلى غمار الفضلاء بزعمهم ، وانخرطوا في سلكهم ، وترفعوا عن مسايرة الجماهير والدهماء ، واستنكافاً من القناعة بأديان الآباء ، ظننا بأن إظهار التكاسيس في النزوع عن تقليد الحق بالشروع في تقليد الباطل جمال ، وغفلة منهم عن أن الانتقال إلى تقليد من تقليد خرق وخيال ، فاية رتبة في عالم الله أخسر من رتبة من يتحمل بترك الحق المعتد تقليداً بالتسارع إلى قبول الباطل تصديقاً ، دون أن يقبله خيراً وتحقيقاً^(٥) ؟

وقع النزالي في هذه الأمشاج من المقالات والخطاوي ، ووجد نفسه أمامها ؛ فأملت عليه تلك الآراء فيها ، وهو رجل يبرأ من الحول والطول ، ويسلم وجهه لله ، ويؤمن بأن الهدى هدى الله ؛ وكمن من حسن فتن صاحبه فأرداه ؛ وكمن عقل أضل صاحبه فأغواه عن سبيل الرشاد .

فلما رجعت نفسه إلى الصحة والاعتدال ، رجعت الضروريات العقلية عنده مقبولة موثقاً بها عن أمن ويقين .

(١) هو الفيلسوف المشهور ولد بأثينا سنة ٤٧٠ ق . م وكان من تلاميذ فيثاغورس ، واتصر من الفلسفة على العلوم الإلهية وأعرض عن ملاذ الدنيا ورفضها ، وأعلن بمخالفة اليونانيين في عبادتهم الأصنام وقابل رؤساءهم بالحجج والأدلة ، فتوروا عليه العامة ، واضطروا ملكهم إلى قتله .

(٢) هي بيث . علوم الفلسفة ، وهو سيد الطبيعيين في عصره ، وكان قبل الاسكندر بنحو مائة سنة ، وله في الطب تأليف مشهورة في جميع العالم ، وفي صدور كتبه وصايا جيلة من التحنن والشفقة على النوع ، وتطهير الأخلاق من الكبر والعجب والمجد .

(٣) أحد أساطين الحكمة من يونان ، أخذ عن فيثاغورس وشاكر سقراط في الأخذ عنه ، ولم يشتهر ذكره بين علماء اليونان إلا بعد موت سقراط ، وصنف كتباً مشهورة في فنون الحكمة ، وذهب فيها إلى الرمز والإغلاق ، واشتهر جماعة من تلاميذه المتخرجين عليه ؛ وسمى الناس فرقته المشائين لأنه كان يعلم تلاميذه الفلسفة وهو ماش .

(٤) هو تلميذ أفلاطون لازمه عشرين سنة ، وكان أفلاطون يؤثره على سائر تلاميذه وبسببه العقل ، ولعل أرسطوطاليس انتهت فلسفة اليونانيين ، وهو خاتمة حكمائهم ، وهو أول من خلص صناعة البرهان من سائر الصناعات المنطقية وجعلها آلة لعلوم النظرية حتى لقب بصناعة المنطق ، وله في جميع العلوم الفلسفية والأدبية كتب مشهورة ، وهو صاحب المنطق ، وكان أرسطوطاليس معلم الإسكندر ابن فيليب ملك مقدونية ، وبآدابه عمل في سياسة رعيته وسيرة ملكه ، وبسبب أرسطوطاليس كثرت الفلسفة وغيرها من العلوم القديمة في البلاد الإسلامية .

(٥) النزالي : تهافت الفلاسفة : ص ٣ (المطبعة الحيدرية - القاهرة ١٣١٩ هـ) .

ولم يكن السبيل إلى ذلك نظم الدليل وترتيب الكلام ، بل كان السبيل نوراً قذفه الله تعالى في صدره ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف .

ومن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة ، قد ضيق رحمة الله الواسعة . ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن « الشرح » ومعناه في قوله تعالى « فن يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ بَشْرَحٍ صِدْرَهُ للإسلام » قال : « هو نور يقذفه الله تعالى في القلب » ! فقول : وما علامته ؟ فقال . « التجافي عن دار الغرور ، والإجابة إلى دار الخلود » وهو الذي قال عليه السلام فيه : « إن الله خلق الخلق في ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره » . فمن ذلك النور ينبى أن يطلب الكشف ، وذلك النور ينبجس من الجود الإلهي في بعض الأحياء ، ويجب التمسك به ، كما قال عليه السلام « إن ربكم في أيام دهركم نفحات ، ألا فتمضوا لها » .

ولم يرد الغزالي بذلك كفاً نفسه ، أو كفاً الناس ، عن الدرس والتأمل والبحث ، اعتماداً على هذا النور الذي لا يأتي إلا نفحات ، وفي بعض الأحياء ، ولكنه أراد أن يصل كمال الجهد في الطلب حتى ينتهي إلى طلب مالا يطلب ، ومالا قدرة على إدراكه ، وهو الذي يحتاج إلى ذلك النور الذي يقذفه الله تعالى في قلوب المصطفين الأخيار من عباده .

✽

وإذا كان الغزالي معدوداً في أئمة فلاسفة الإسلام ؛ فإن ذلك حق ، إذا أريد به أنه صاحب رأى وصاحب فكرة حرة ، لا تسير في ركاب فكر أخرى ، مهما يكن حظها من الذبوع ؛ وحظ أصحابها من الجهد في دنيا التفكير .

وإذا كان الغزالي معدوداً في رأس المتصوفة التقية الزاهدة الورعة ، فإن ذلك حق أيضاً ، ولكن ينبى أن يكون معروفاً أنها ليست صوفية البُله من العوام ، ولكنها صوفية الخاصة ، صوفية مستنيرة جادة مجاهدة في طلب المعرفة ، وسبيل الوصول عندها إلى الحقيقة ذلك الجهد الذي يقتحم كل واد من أودية المعرفة : المعرفة التي يرضاها ؛ والمعرفة التي ينكرها ، والمعرفة التي قد يسلم بها ولكنه لا يأخذ بها .

وهي صوفية تقف في وجه الابتداع ، وتقف أيضاً في وجه التقليد ، صوفية تفند من أهل الهواة من أهل العقل ، وهي في الوقت نفسه تحترم أحكام العقل التي لا تقبل المنازعة ؛ حتى لو عدها بعض الجامدين خروجاً على الدين ومخالفة لنصوص سادت في يثاتهم ؛ إنه يؤول تلك النصوص تأويلاً يجارى به أحكام العقل وأحكام الطبيعة ؛ ويظن في صحة النص إذا عارض أحكام العقل المسلم بها وأحكام الطبيعة الراهنة الشاخصة ، ويذهب إلى أن الإصرار على تقبل تلك النصوص على ما فيها مضر بالإسلام ومشكك في صحة العقيدة .

انظر إليه وهو يحصى أقسام الخلاف بين الفلاسفة وبين غيرهم من الفرق ، ويذكر قسماً من هذا الخلاف ، لا يصدم مذهب الفلاسفة فيه أصلاً من أصول الدين ، وليس من ضرورة تصديق الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم منازعتهم فيه ، كقولهم : إن كسوف القمر عبارة عن انمحاء ضوء القمر بتوسط الأرض بينه وبين الشمس ، من حيث إنه يقتبس نوره من الشمس ، والأرض كرة والسماء محيطة بها من الجوانب ، فإذا وقع القمر في ظل الأرض

انقطع عنه نور الشمس . وكقولهم : إن كسوف الشمس معناه وقوع جرم القمر بين الناظر وبين الشمس ، وذلك عند اجتماعهما في المقتدين على دقيقة واحدة .

إن هذا الفن لا يحاول النزالي أن يخوض في إبطاله ، إذ لا يتعلق به غرض من الدين ، وبصرح بأن من يظن أن المناظرة في هذا من الدين ، قد جنى على الدين وضمت أمره ، لأن هذه الأمور تقوم عليها براهين هندسية حسية لا يبقى معها ريب ، ومن اطلع عليها وتحقق أدلتها ، حتى يحبر بسببها عن وقت الكسوفين وقدرها ومدة بقائها إلى الانجلاء ، إذا قيل له : إن هذا على خلاف الشرع لم يسترب فيه ، وإنما يستريب في الشرع . وضرر الشرع ممن ينصره لا بطريقه ، أكثر من ضرره ممن يظن فيه بطريقه ، وهو كما قيل : عدو عاقل خير من صديق جاهل ! .

فإن قيل : قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الشمس والقمر لآيتان من آيات الله ، لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله والصلاة » فكيف يلائم هذا ما قالوه ؟ يقول النزالي : ليس في هذا ما يناقض ما قالوه ، إذ ليس فيه إلا نفي وقوع الكسوف لموت أحد أو لحياته ، والأمر بالصلاة عنده . والشرع الذي يأمر بالصلاة عند الزوال والغروب والطلوع ، من أين يبعد منه أن يأمر بها عند الكسوف استحباباً ؟ .

فإن قيل : قد روي أنه قال في آخر الحديث : « ولكن الله إذا تجلى لشيء خضع له » فيدل على أن الكسوف خضوع بسبب التجلي . قلنا : هذه الزيادة لم يصح نقلها ، فيجب تكذيب ناقلها ؛ وإنما المروي ما ذكرناه ، كيف ولو كان صحيحاً لكان تأويله أهون من مكابرة أمور قطعية ؟ أفكم من ظواهر أولت بالأدلة العقلية التي لا تنتهي في الوضوح إلى هذا الحد .

وأعظم ما يفرح به الملاحدة أن يصرح ناصر الشرع بأن هذا وأمثاله على خلاف الشرع ؛ فيسهل عليهم طريق إبطال الشرع ، إن كان شرطه أمثال ذلك !

وهذا لأن البحث في العالم عن كونه حادثاً أو قديماً ، ثم إذا ثبت حدوثه ، فسواء أكان كرة أم بسيطاً ، أم حديدياً ، أم منمنماً ؛ وسواء أكانت السموات وما تحتها ثلاث عشرة طبقة ، أم قل ، أم أكثر ، فنسبة النظر فيه إلى البحث الإلهي ، كنسبة النظر إلى طبقات البصلة وعددها ، وعدد حب الرمان ، فالمتصور كونه من فعل الله تعالى حط كيفاً كان !

إن مثل هذه العقليّة الواعية ، هي العقليّة التي تخدم الدين ، وتبسط ساحته ، وتدعو إليه ، وترغب فيه ، لا العقليات الجامدة التي تقف في سبيل كل علم ، وتمترس على كل نظر واجتهاد وتمنع من الأمور الحديثة ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة في النار . حتى حار كثير من المسلمين في تقبل ألوان المعارف التي لم يكن لسلف عهد بها ، خشية أن تكون من تلك البدع التي تقود صاحبها إلى غضب الله ، وإلقائه في جهنم وبئس القرار . وبهذا التردد وقف الركب بدل أن يتقدم ، وأحجم حيث يجب أن يتقدم . وزعم بعض الغافلين أن الدين نصٌّ يبنى الوقوف

عند حروفه ودلالات ألفاظه ؛ وما ليس في هذه النصوص فالإسلام منه براء ؛ وهو لغو يحمل بالمسلم أن يتحاشاه إن أراد الحفاظ على عقيدته . وغفلوا عن أن صاحب الدين هو صاحب الدنيا ، وأنه واهب القول ، كما ألقى في القلوب الهدى ، وهداها إلى الإيمان ؛ وأنه أمر بالسعى كما أمر بالنظر والبحث في ملكوته ، لتبين آياته للمتوسمين .

الباحثون عن الحقيقة :

وهم السالكون سبل طلب الحق ؛ وإن شذ الحق عنهم فلا يبقى في درك الحقيقة مطمع ؛ إذ لا مطمع في الرجوع إلى التقليد بعد مفارقتها .

وقد بحث عنهم النزالي في عصره فأقام أربع فرق :

(١) المتكلمون : الذين يدعون أنهم أهل الرأي والنظر .

(٢) الباطنية : الذين يزعمون أنهم أصحاب التعليم ، والمخصوصون بالانقباس من الإمام المعصوم .

(٣) الفلاسفة : وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان .

(٤) الصوفية : وهم الذين يدعون أنهم خواص الحضرة ، وأهل المشاهدة والكاشفة .

وقد درس النزالي مباحث هذه الفرق ، وأمعن في درس مناهجها في البحث .

النزالي وعلم الكلام :

ابتدأ بعلم الكلام فخصله وعقله ، وطالع كتب المحققين من المتكلمين ، وعرف أن غايتهم حفظ عقيدة أهل السنة عن تشويش المبتدعين . فقد أطلق الله ألسنتهم لنصرة السنة بكلام مرتب ، يكشف عن تلبيس أهل البدعة المحدثين على خلاف السنة الماثورة . وقامت طائفة منهم بما ندبهم الله إليه ، فأحسنوا الذب عن السنة والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من الثبوت ، والتفسير في وجه ما أحدث من البدعة .

ويرى النزالي بأنه صادف علم الكلام وافياً بالغاية التي كان لها ، ولكنه على الرغم من ذلك لم يشف نفسه ولم يف بمقصوده ، لأنه لم ير الاستقلال كاملاً في بحوثه والتجرد في طلبه ، بل ألقى المتكلمين اعتماداً في سبيل غايتهم على مقدمات نسلوها من خصومهم ، واضطروهم إلى التسليم بها التقليد ، أو إجماع الأمة ، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار ، ولأن أكثر خوضهم كان في استخراج مناقضات الخصوم ، وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات بشيء أصلاً . ثم إنه لما نشأت صناعة الكلام وكثر الخوض فيه ، تشوق المتكلمون إلى محاولة الذب عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور ، فحاضوا في البحث عن الجواهر والأعراض وأحكامها ، ولكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى ، ولم يكن من ذلك ما ينجو بالكلية ظلمات الخيرة في اختلافات الخلق .

ولذلك لم يجد النزالي علم الكلام وافياً بمراده ، ولا شافياً لدائه . وإن كان لا ينكر أن هذا العلم قد شفى قسماً غيره ووفى بمقصوده ، بل لا يشك في حصول ذلك لطائفة ، ولكنه حصول مشوب بالتقليد في بعض الأمور . والنزالي

يحكى بذلك حاله ولا ينكر على من استشفى به ، فإن أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء ، وكما من دواء ينتفع به مريض ، ويستضر به آخر

الزالي والفلسفة :

وثنى على الفلاسفة ، درسه في سنتين ، ثم لم يزل يراغب على التفكير فيه بعد فهمه قريباً من سنة ، يماوده ويردده ، ويتفقد غواظه وأغواره ، ويطلع على ما فيه من خداع وتليس ، وتحقيق وتخيل . وقد رأى الفلاسفة أصنافاً ، ورأى علومهم أقساماً .

عرف منهم (الدهريين) الذين جعلوا الصانع المدبر ، العالم للقادر ، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه ، وبلا صانع . ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبداً . وهؤلاء هم الزنادقة .

وعرف منهم (الطبيين) الذين أكثروا البحث عن عالم الطبيعة ، وعن عجائب الحيوان والنبات ، وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوانات ، فأروا فيها من عجائب صنع الله تعالى وبدائع حكمته ، ما اضطروا معه إلى الاعتراف بقاطر حكيم ، مطلع على غايات الأمور ومقاصدها ، إلا أنهم يرون لاعتدال المزاج تأثيراً عظيماً في قوام قوى الحيوان به ، فطنوا القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه ، وأنها تبطل ببطلانه ، وإذا انعدم فلا يعقل إعادته ؛ فالنفس تموت ولا تعود ، فجحدوا الآخرة ، وأنكروا الجنة والنار والحشر والنشر والقيامة والحساب ، ولم يبق عندهم للطاعة ثواب ، ولا للمعصية عقاب ، فأنهكوا في الشهوات أنهماك الأنعام . وهؤلاء أيضاً زنادقة ، لأن أصل الإيمان هو الإيمان بالله واليوم الآخر ، وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر ، وإن آمنوا بالله وصفاته .

وعرف منهم (الإلهيين) من أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس الذي رتب لهم المنطق وهذب لهم العلوم ، وحرر مالم يكن محرراً من قبل ، وأنصج لهم ما كان غيماً من علومهم . وهؤلاء يحملهم ردوا على الدهريين والطبيين وأوردوا في الكشف عن فضائهم ما أغنوا به غيرهم ، وكذلك رد بعضهم بعضاً . ولهم شعبة من المتفلسفة الإسلاميين كابن سينا والفارابي .

أما العلوم التي خاض فيها أولئك الفلاسفة فقد حصل أقسامها ودرس مباحث كل منها ، وأعلن رأيه فيها ، وهي العلوم الرياضية والمنطقية والطبيعية والإلهية والسياسية والخلقية ، وتكلم عن آفاقها وعما يتعلق منها بالدين ، ومالا يتصل به أولاً يؤثر في العقيدة الوقوف عليه . فالرياضيات التي تتعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيئة العالم ليس يتعلق شيء منها بالأمور الدينية نفيًا وإثباتًا ، بل هي أمور برهانية لا سبيل إلى مجادتها بعد فهمها ومعرفتها . ولكن تولدت منها آفتان :

الأولى : أن من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ، ومن ظهور براهينها ، فيحسن بسبب ذلك اعتقاده في الفلاسفة فيحسب أن جميع علومهم في الوضوح وفي وثاقة البرهان كهذا العلم ، ثم يكون قد سمع من كفرهم وتعطيلهم وتهاونهم بالشرع ما تداوكت الألسنة ، فيكفر بالتقليد المحض ؛ ويقول : لو كان الدين حقاً لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم

في هذا العلم . فإذا عرف بالتسامح كفرهم وجحدهم استدلل على أن الحق هو الجحد والإنكار للدين ، وكما رأيت من يفضل عن الدين بهذا القدر ؛ ولا مستند له سواء ؛ مع أن الحاذق في صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقاً لكل صناعة .
والثانية : نشأت من صديق للإسلام جاهل ، ظن أن الدين ينصر بإنكار كل علم منسوب إليهم ، فأنكر جميع علومهم وادّعى جهلهم فيها ، حتى أنكر قولهم في الكسوف والخسوف ، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع ، فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع لم يشك في برهانه ، لكن اعتقد أن الإسلام مبني على الجهل وإنكار البرهان القاطع ، فازداد للفلسفة حياء ، وللإسلام بغضا . ولقد عظم على الدين جناية من ظن أن الإسلام ينصر بإنكار هذه العلوم ، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي أو الإثبات .

وبهذا الأسلوب عالج الفزالي سائر أقسام علوم الفلاسفة ، وخلص من دراسته بأن علومهم غير وافية بكال النرض ، وأن العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المضلات .

الفزالي ومذهب التعليم :

وعرف ما عند أولئك الذين يسمون أنفسهم (التليسين) الذين شاع بين الخلق تحذيرهم بمعرفة معنى الأمور من جهة الإمام المعصوم القائم بالحق ، وبحث عن مقالاتهم ، واطلع على ما في كتبهم ؛ وهناك عامل خارجي أعانه على هذا البحث ضمنية للباعث الأصلي من الباطن في طلب المعرفة ، وذلك هو ورود أمر جازم من حضرة الخلافة بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم ، فلم يسعه مدافعته .

وخلاصة رأي الفزالي أنه لا حاصل عند هؤلاء . ولا طائل لكلامهم ، ولولا سوء نصرة الصديق الجاهل لما انتهت تلك البدعة مع ضعفها إلى هذه الدرجة . ولكن شدة التعصب دعت الذآيين عن الحق إلى تطويل النزاع معهم في مقدمات كلامهم ، وإلى مجادلتهم في كل ما نطقوا به ، فجادوم في دعواهم « الحاجة إلى التعليم والعلم » ودعواهم أنه « لا يصلح كل معلم بل لا بد من إمام معصوم » وظهرت حججهم في إظهار الحاجة إلى التعليم والعلم ، وضعف قول المنكرين في مقابلته ؛ فاعتر بذلك جماعة ، وظنوا أن ذلك من قوة مذهبهم وضعف مذهب المخالفين لهم ، ولم يفهموا أن ذلك لضعف ناصر الحق وجهله بطريقة ، بل للصواب الاعتراف بالحاجة إلى العلم ، وأنه لا بد أن يكون المعلم معصوماً . ولكن معلنا المعصوم هو محمد صلى الله عليه وسلم فإذا قالوا : هو ميت ! فنقول : فمعلمكم غائب .

فإذا قالوا : معلنا قد علم الدعاة وبشهم في البلاد ، وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا أو أشكل عليهم مشكل فنقول : ومعلنا قد علم الدعاة وبشهم في البلاد ، وأكمل التعليم ، إذ قال الله تعالى : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي » وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم كما لا تضر غيبته !

ويورد بعد ذلك طائفة من مقالاتهم ، ويجهد في البرهان على إبطالها . ثم يقول : فهؤلاء أيضاً جربناهم ، وسبرنا ظاهريهم وباطنيهم ، فرجع حاصلهم إلى استدراج العوام وضعفاء العقول ببيان الحاجة إلى العلم ، ومجادلتهم في إنكار الحاجة إلى التعليم بكلام قوي مفعم ، حتى إذا ساعدتهم على الحاجة إلى العلم مساعد ، وقال هات طبعه ،

واقفنا من تعليمه ، وقف وقال : الآن سلمت لي هذا فأطلبه ، فإنما غرضي هذا القدر فقط . إذ علم أنه لو زاد على ذلك لا تفصح ، ولعجز عن حل أدنى الإشكالات ، بل عجز عن فهمه ، فضلاً عن جوابه . فلما خبرهم ففض اليد عنهم ، إذ لم يجد معهم شيئاً من الشفاء المنجي من ظلمات الآراء .

الفرزالي والصوفية :

وبقي من طوائف الباحثين عن الحقيقة طائفة (الصوفية) ، وقد علم أن طريقهم إنما يتم بعلم وعمل ، وحاصل علمهم قطع حجابات النفس والتزهد عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتخليته بذكر الله .

يقول الفرزالي : وكان العلم أبسر على من العمل ، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم ، مثل « قوت القلوب » لأبي طالب المكي رحمه الله ، وكتب الحارث المحاسبي ، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي ، قدس الله أرواحهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم البلية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، فظهر لي أن خواص خواصهم مالا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات وعلمت يقيناً أنهم أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال ، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم قد حصلته ولم يبق إلا مالا سبيل إليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك .

ولقد أثنى الفرزالي على الصوفية ثناء عظيماً ، وامتدح سيرتهم ، بعد أن عكف على دراستهم علماً وعملاً واقتداءً ونجراً ومجاهدة نفس ، حتى انتهى إلى أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق .

بل إنه ليذهب إلى أنه لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلاً ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به .

وبالجملة فإذا يقول القائلون في طريقة ، طهارتها - وهي أول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية في الله ؟

وهو على مذهبه في حرية البحث ، وفي حرب التقليد ؛ لا يفرم على كل شيء إقراراً مطلقاً ، بل إنه ليصف بالخطأ ما تذهب إليه بعض طوائفهم مما يجري على ألسنتهم ، ممن يقولون بالحلل ، ومن يقولون بالاتحاد ، ومن يذهبون للوصول ؛ وغير ذلك مما بعده أثر من آثار عدم القدرة عن الإفصاح عما يرون وما يشاهدون من آثار عظمة الله ، إلى درجة يضيق فيها نطاق النطق ، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح ^(١) .



آثار النزالي :

تلك لغات من الجهود المضيئة التي بذلها النزالي في العلم وتحصيله ، وفي سبيل البحث عن الحقيقة ، بالبحث عن طالبها ، والوقوف على ما عندهم من فنونها ؛ مع تعميق مقالاتهم والفحص عن حقيقة مذاهبهم وعلومهم ؛ ولا نشك في أن الذين أبلوا مثل هذا الهلاك أقل من القليل ، قد جرت الغالبية العظمى من للفكرين على أن يتخذوا لأنفسهم منهجاً واحداً لا يكادون يتعدونه ، وتهديهم الملائكة إلى فكرة واحدة يحومون حولها ، أو يحصرهم أنفسهم في دائرتها ؛ ولا يكادون ينظرون إلى ما حولها من سائر الآراء والأفكار ، على ذلك النحو الذي ذكرنا طرقاً منه .

وإنك لتعجب لتلك الآثار التي خلفها النزالي ؛ فإنها على كثرتها المعجبة تفيض بصنوف من المعرفة المتخصصة وتجرد في كل أثر منها لونا خاصاً متميزاً عما عداه ، وتجرد فيه ما تنشده من العمق والأصالة ، وإنك لتراه في كثير من المواضع إذا قارب فكرة من الأفكار ، أو مشكلة من المشكلات ، يكون قد درسها في كتاب آخر ، فإنه يشير إلى الكتاب الذي عرض فيه لتلك الفكرة ، أو درس فيه تلك المشكلة ، وتراه ينفر من تكرار نفسه ، وتلك دلالة القوة والتمكن .

ومن تلك الآثار التي خلفها :

- (١) كتاب إحياء علوم الدين : وسنخسه بشيء من الدراسة .
- (٢) كتاب تهافت الفلاسفة : درس فيه مقالات الفلاسفة ، وبين أغلاطهم ، التي حصرها في عشرين أصلاً ، يجب تكفيرهم في ثلاثة منها ، وتبديهم في سبعة عشر .
- (٣) كتاب الاقتصاد في الاعتقاد : في مقدار مائة ورقة يحوى لباب علم المتكلمين .
- (٤) كتاب المنقذ من الضلال : ذكر فيه غاية العلوم وأسرارها ، وغائلة المذاهب وأغوارها ، وما قاساه في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق .
- (٥) كتاب جواهر القرآن : أبان فيه عن أسرار من آيات القرآن ، وأنه البحر المحيط المنطوي على أصناف النفائس .
- (٦) كتاب ميزان العمل : وهو فلسفة دينية توضح ما جاء في علوم الدين من الغايات والمقاصد .
- (٧) كتاب المقصد الأسنى في معاني أسماء الله الحسنى .
- (٨) كتاب فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة : ذكر فيه فساد رأى من يسارع إلى التكفير في كل ما يخالف مذهبه .

(٩) كتاب القسطاس المستقيم : ذكر فيه طريق رفع الخلاف بين الخلق ، وهو كتاب مستقل بنفسه مقصوده بيان ميزان العلوم ، وإظهار الاستغناء عن الإمام المعصوم .

(١٠) كتاب المستظهرى (١١) كتاب حجة الحق (١٢) كتاب مفصل الخلاف في أصول الدين . وفي هذه

الكتب الثلاثة تعرض لمذهب التعليمية وبين فساد مذهبهم .

- (١٣) كتاب كيمياء السعادة : حصر فيه الشبه التي توهمها أهل الإباحة وكشفها .
 (١٤) كتاب البسيط (١٥) كتاب الوسيط (١٦) كتاب الوجيز (١٧) كتاب خلاصة المختصر . وهي كتب تبحث في علم الحدود الموضوع للاختصاص بالأموال والنساء والعاملات ، وغيرها من المباحث الفقهية .
 (١٨) كتاب ياقوت التأويل في تفسير التنزيل : في أربعين مجلداً .
 (١٩) كتاب المستقصى (٢٠) كتاب للنخول . وهما في أصول الفقه .
 (٢١) كتاب للتحل في علم الجدل (٢٢) كتاب معيار العلم (٢٣) كتاب المقاصد .
 (٢٤) كتاب المضمون به على غير أهله (٢٥) كتاب مشكاة الأنوار (٢٦) كتاب محك النظر (٢٧) كتاب أسرار علم الدين (٢٨) كتاب منهاج العابدين (٢٩) كتاب الدرر الفاخرة في كشف علوم الآخرة (٣٠) كتاب الأئیس فی الوحدة (٣١) كتاب القربة إلى الله عز وجل (٣٢) كتاب أخلاق الأبرار والنجاة من الأشرار (٣٣) كتاب بداية الهداية (٣٤) كتاب الأربعين في أصول الدين (٣٥) كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة (٣٦) كتاب للمبادئ والغايات (٣٧) كتاب تليس إبليس (٣٨) كتاب نصيحة الملوك (٣٩) كتاب شفاء العليل في القياس والتعليل (٤٠) كتاب إجماع العوام عن علم الكلام (٤١) كتاب الانتصار (٤٢) كتاب العلوم اللدنية (٤٣) كتاب الرسالة القدسية (٤٤) كتاب إثبات النظر (٤٥) كتاب المأخذ (٤٦) كتاب القول الجليل في الرد على من غير الإنجيل (٤٧) كتاب الأمالي .

ومن هذه الكتب ما هو ضخم رحب المادّة ، ولكن بعض هذه الآثار صغير لا يرقى إلى درجة الكتاب ، ولكنه ربما كان أشبه بالمقالات التي تقضيها المجادلات في موضوع من الموضوعات ؛ أو إزالة شبهة من شبهة العارضة . وأيا ما كان الأمر ، فإن هذا الإنتاج الضخم يدل صدق دلالة على أن صاحبه من الذين وقفوا حياتهم على العلم ؛ وتبتلوا في محرابه ، كما يدل على إخلاص للدين ، وتقان في سبيل الذود عن حياضه ؛ إلى ما يدل عليه من كثرة التحصيل وغزارة المعرفة ؛ والحياة المباركة التي هيأ الله سبيلها ووفق إليها .

كتاب إحياء علوم الدين

ذكر المؤرخون أن الغزالي حدث بكتاب الإحياء ، بعد عودته إلى بغداد من رحلته إلى بلاد الشام ، أي بعد تلك الفترة التي عزفت فيها نفسه عن الدنيا ، وزهدت فيها وقطع فيها ، العلائق بينه وبين الناس ، وذكروا أنه كان يحدث بهذا الكتاب في مجالس الوعظ ، وروى ابن النجار أن الغزالي « لم يكن له أستاذ ولا طلب شيئاً من الحديث » والذي يفهم من ظاهر هذا الكلام أن ما حدث به الغزالي في بغداد من كتاب إحياء علوم الدين كان إلهاماً أو كان ثمرة من ثمرات المعرفة التي أفاضها الله عليه في مرحلة نسكه وتصوّفه .

هذا ولا نستطيع أن نقرّ هذا المفهوم على إطلاقه ، فنقول مع القائلين : إن كل ماني « إحياء علوم الدين » كان وحياً أو إلهاماً ، وأنه كان ثمرة حياة العزّة والتأمل التي قضاها في دمشق وبيت المقدس وفي البلد الحرام .

ونحن في هذا لا ننكر أثر النكس والخلوة في تطهير النفس وتصفيتها وإطلاقها من قيود المادة ، فإن في قطع العلائق بالحياة والناس ، إبقاء على كثير من الجهود التي يستنفدها الاضطراب في الحياة والاتصال بالناس ، وانشغال القلب بأقوالهم وأعمالهم وتزاحمهم في طلب الحياة .

لا ننكر أثر التصفية والتخلية في إزهاق الملذات وتنقية الروح من الشوائب التي تقعد بها عن بلوغ درجة التفكير المجرد في هذا المللكوت ، وفي الخلق والخالق ، وفي البداية والنهاية ، وفي مذاهب السلوك وفلسفة الأخلاق . بل إننا لا نشك أن الخلوة وطول التأمل وكبح جماح النفس من أعظم أسباب تحرير الروح من قيود المادة ، وفيها أكبر عون على تنظيم التفكير ، وتقل ماني الكون من الماديات ، وما ينطوي فيها من الآيات ، وما يحتمل وراءها من الأسرار التي أعيت على العقول .

ولكننا ننكر كل الإنكار أن يكون ماني « الإحياء » من الأصول الفقهية ، والمسائل الشرعية ، وقواعد المبادات ونحوها شيئاً جديداً ألهمه النزالي في رحلاته أو أوحى به إليه في خلواته ، ونرى في مثل هذه الدعوى سذاجة قد يشك فيها البكّة من العوام ، بله غيرهم من طبقات المفكرين .

وننكر كل الإنكار أن يكون ما اشتمل عليه « الإحياء » من النصوص وما استشهد به من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً عرفه النزالي من غير معلم ولا كتاب ، وقد ثبت أن تلك الأحاديث مروية معروفة خرجها المخرجون من رواة الأحاديث والعالمين بإسنادها ورواياتها .

كل ذلك لا شك في بطلانه بحكم العقل وبحكم الشرع أيضاً .

ولا شيء من هذه الدعاوى يرتفع به النزالي بين الباحثين أو المفكرين أو رجال الصوفية ، إذا كان هناك من يريدون له تلك المنزلة بين الباحثين والمفكرين والمتصوفة عن مثل هذا الطريق التي لا يرضاها النزالي لنفسه .

إن تلك الأصول وتلك النصوص ليست مجال وحى ولا مجال إلهام ، وكيف الإلهام بمحصل موجود يعرفه العامة ويعرفه الخاصة ، وليس في تحصيله كبير عنت ولا مشقة لمن يريد المعرفة والتحصيل ١٢

وإنما الجهد أو الاجتهاد ، الذي لا ننكر فيه أثر الخلوة وتصفية النفس ، فهو ما عاين به لتلك الأحكام وما جمعه منها ، وما نظم به طرائق البحث فيها ، وما أرجع به الدين إلى فطرته ، ليكون عملاً واجتهاداً ، كما كان معتقداً وإيماناً ، وفي « الإحياء » من ذلك الشيء الكثير الذي يدل على طول الباع ، كما يدل على سعة الاطلاع ، ويدل على صفاء النفس وطهارة القلب ، كما يدل على الجهد والعناء في الرواية والدراية ، وفيما تقدم الكثير من الأدلة على ذلك .

تنقل النزالي بين خراسان والعراق والشام والحجاز ، فإذا وجد في تلك البلاد التي تعد معاقلة للإسلام ؟ وجد فيها خلفاء أبطرم السلطان وفتنهم الدنيا ، وحولهم من الرعية من يقتل لهم بين القردة والغارب ، وفيهم

الصبر يأساً ، والمصرّ خذّه تيهاً ودلاً ، وألنى رجال الدين في شغل من الدين ، يتذلقونه في استرضاء للسلطان ، وإشباع نهمه في الاستعلاء والكبرياء ، والكل عن الدين لاهون ، إلا بالقدر الذي تدرّ به معاشهم ، وبين هؤلاء وأولئك طائفة تدعى المعرفة ؛ وتتخذ دين الله هزواً ، وترى الآخذين به جهةً من الطنم ، ومن عوام الدماء ؛ والأخذ به غلة وجوداً ، حتى زاد الخطب وامت الرزية ، وأحوج الأمر إلى من يذكر بالله ، ويحث على التدبر في آياته ، والرجوع إلى دينه الحق ومراطه المستقيم .

إلى هؤلاء وأولئك أشار النزالي في خطبة « الإحياء » إذ وجد في الناس للتأثير على ما هو عليه من المعنى من جليلة الحق ، مع العجاج في نصرته الباطل وتحسين الجهل والتشبيب^(١) على من آثر النزوع قليلاً عن مراسم الخلق ، ومال ميلاً يسيراً عن ملازمة الرسم إلى العمل بمقتضى العلم ، طمعاً في نيل ما تبده الله تعالى به من تزكية للنفس وإصلاح للقلب . . . وأداة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، وقد شغلهم الزمان ، ولم يبق إلا المترسمون ، وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستغرام الطغيان ، وأصبح كل واحد بما جل حظه مشغولاً ، فصار يرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، حتى ظل علم الدين مندرساً ، ومنار الهدى في أقطار الأرض منطمساً ، ولقد خيلوا إلى الخلق ألا علم إلا فتوى حكومة نستعين به للقضاء على فصل الخصام عند تهاوش الطنم ، أو جدل يتدرع به طالب للباهة إلى الغلبة والإفحام ، أو سجع مزخرف يتوسل به الرعاظ إلى استدراج العوام ، إذ لم يروا سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام ، وشبكة للحطام فأما علم طريق الآخرة ، وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله سبحانه في كتابه فقهاً وحكمة وعلماً ، وضياءً ، ونوراً وهداية ، ورشداً ، فقد أصبح من بين الخلق مطويّاً ، وصار نسياً منسياً .

ورأى النزالي ما آل إليه الأمر تلكاً ملأ ، وخطباً مدلهماً في الدين ، وأن الاشتغال بتحرير هذا الكتاب فيه إحياء لعلوم الدين ؛ وكشف عن مناهج الأئمة المتقدمين ، وإيضاح لمناهي العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين^(٢) .

وقد ذكر أن أمثال هذه البحوث ليست جديدة مستحدثة ، فقد صنف الناس في المعاني التي ألف فيها كتباً ، ولكن كتابته تتميز عن كتاباتهم بخمسة أمور :

الأول : حل ما عقده ، وكشف ما أجهلوه .

الثاني : ترتيب ما بدتوه ، ونظم ما فترقوه .

الثالث : إيجاز ما طولوه ، وضبط ما فترروه .

الرابع : حذف ما كرروه ، وإثبات ما حرروه .

الخامس : تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأفهام لم يتعرض لها في الكتب أصلاً : إذ الكل وإن توارحوا

(١) التشبيب : تهيج الشر

(٢) إحياء علوم الدين : ص ٩ من هذه الطبعة .

على منهج واحد ، فلا نستفكر أن يتفرد كل واحد من السالكين بالتنبيه لأمر يخصه وينفل عنه رقائمه . أولاً ينفل من التنبيه ، ولكن يسهو عن إirاده في الكتب . أولاً يسهو ، ولكن يصرفه عن كشف الخطاء عنه صارف .

وما قرره صحيح ، يعترف له به كل باحث وكل دارس وكل مؤلف ، إذ لابد لصاحب الموضوع من الرجوع إلى الجهود السابقة فيه ، ليعرف مواضع النقص ومواطن الخلل ، ثم يحرر من تلك الجهود ما يستحق التحرير ، ويضيف إليه ما عنده من المعرفة فيه ، والتحرير جهد يقتضى الإحاطة ، والإضافة هي ما يمتاز به جهد من جهد ، ويفضل بها الكتاب سواء من الكتابين .

أوبعنى آخر لابد من العنصر الذاتي والأصالة في كل عمل له وزن بين الأعمال ؛ ليحسب صاحبه بين رجال المعرفة بالموضوع ؛ وقد أشرنا إلى مجال الذاتية في الكلمات السابقة .

ولقد ذكر الفزالي نفسه أن العلوم التي تحصل في القلب في بعض الأحوال تختلف الأحوال في حصولها ، فتارة تهجم على القلب كأنها أقيمت فيه من حيث لا يدري ، وتارة تكتسب بطريق الاستدلال والتعلم .

فالذي يحصل لا بطريق الاكتساب وحيلة الدليل يسمى (الإلهام) .

والذي يحصل بالاستدلال يسمى (الاعتبار) و (الاستبصار) ويختص به العلماء .

ثم الواقع في القلب بغير الحيلة والتعلم والاجتهاد من العبد ينقسم إلى :

(١) ما لا يدري العبد كيف حصل له ، ومن أين حصل ، وهذا يختص به الأولياء والأصفياء .

(٢) ما يطلع العبد معه على السبب الذي استفاد منه ذلك العلم ، وهو مشاهدة الملك الملقى في القلب ، وهذا

يسمى (وحياً) ويختص به الأنبياء .

ويقرر الفزالي أن الأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر ، وقاض على صدورهم النور من غير طريق التعلم والدراسة والكتابة ، بل بالزهد في الدنيا ، والتبرؤ من علائقها ، وتفرغ القلب من شواغلها ، والإقبال بكنه المهمة على الله تعالى . .

إلا أنه مع ذلك يصرح بأنه « إذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم نشبت بالقلب خيالات فاسدة ، تطمئن النفس إليها مدة طويلة إلى أن تزول ، وينتفضى العمر قبل النجاح فيها ، وكمن صوفى سلك هذا الطريق ، ثم بقى في خيال واحد عشرين سنة ، ولو كان قد أتقن العلم من قبل لانتفع له وجه التباس ذلك الخيال في الحال فلاشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب إلى الفرض .

لقد زعموا أن ذلك يضاهى ما لو ترك الإنسان تعلم الفقه ، وزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتعلم ذلك وصلو هبها بالوحى والإلهام من غير تكرير وتعليق ، ثم يقول قائلهم : فأنا أيضاً ربما انتهت إلى الرياضة والمواظبة إليه ١٩

ومن ظن ذلك فقد ظلم نفسه ، وضيع عمره ، ومثله مثل من يترك طريق الكسب والحراثة ، رجاء العثور على

كنز من الكنوز . إن ذلك ممكن ولكنه بعيد جداً . فكذلك هذا !

لا بد أولاً من تحصيل ما حصله العلماء وفهم ما قالوه ، ثم لا بأس بعد ذلك بالانتظار لما لم ينكشف أسرار العلماء ،
فصاه ينكشف بعد ذلك بالمجاهدة^(١) .

فليندبر هذا الكلام جيداً أولئك القائلون ؛ ليعرفوا أن طريق الآخرة معرفة وحمل ، كما أن طريق الحياة علم
وجهاد ؛ وليعلموا أن النزالي وهو من أقطابهم في القمة لم يبلغ ما انتهى إليه إلا بالكفاح الطويل في تحصيل المعرفة .

— ٢ —

قسم النزالي « إحياء علوم الدين » أربعة أقسام ، أو أربعة أرباع كما سماها :

(١) ربيع العبادات : ذكر فيه العلم ، وقواعد العقائد ، وأسرار الطهارة ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ،
وآداب تلاوة القرآن ، والأذكار والدعوات ، والأوراد وأوقاتها . وقد ذكر في هذا القسم من خفايا آدابها ودقائق
سننها وأسرار معانيها ما يضطر العالم العامل إليه ، بل لا يكون من طمأنينة الآخرة من لا يطلع عليه .

(٢) ربيع العادات : يشتمل على آداب الأكل ، وآداب النكاح ، وأحكام الكسب ، والحلال والحرام ،
وآداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق ، والعزلة ، وآداب السفر ، والسمع والوجد ، والأمر بالمعروف ، والنهي
عن المنكر ، وآداب المعيشة ، وأخلاق النبوة .

وفيه ذكر أسرار المعاملات الجارية بين الخلق وأغوارها ودقائق سننها ، وخفايا الورع في مجاريها .

(٣) ربيع المهلكات : وقد شرح فيه عجائب القلب ، ورياضة النفس ، وآفات شهوات البطن والفرج ، وآفات
اللسان ، وآفات الغضب والحقد والحسد ، وذم الدنيا ، وذم المال والبخل ، وذم الجاه والرياء ، وذم الكبر والتعجب ،
وذم الغرور .

وقد درس في هذا القسم كل خلق مذموم ورد القرآن بإماتته ، وتركبة النفس عنه ، وتطهير القلب منه ، وذكر
من كل واحد من تلك الأخلاق حده وحقيقته ، ثم ذكر سببه الذي يتولد منه ، والآفات التي تنبت عليه ، والعلامات
التي يعرف بها ، وطرق المعالجة لتخلص منه .

(٤) ربيع المنجيات : وقد ذكر فيه كل خلق محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصدّيقين التي بها
يتقرب العبد من رب العالمين ، وقد ذكر في كل خصلة حدها وحقيقته وسببها وثمرتها وعلامتها وفضيلتها .
وتلك المنجيات هي : التوبة ، والصبر ، والشكر ، والخوف والرجاء ، والفقر والزهد ، والتوحيد والتوكل ،
والحبة والشوق والأنس والرضا ، والنية والصدق والإخلاص ، والمراقبة والمحاسبة ، والتفكير ، وذكر الموت .

وقد قدم الكتاب بالكلام في فضل العلم والتعليم ، ليكشف عن العلم الذي يبعد الله تعالى به ، حتى نصح
العبادة ؛ إذ كان من العلم ما هو نافع وما هو ضار ، وما هو محمود ، وما هو مذموم ؛ وفي فنون العلم التي شغل بها معاصروه ،
وحكم كل علم منها .

(١) رابع الجزء الثاني من الإحياء (ص ١٧ - ١٩) من هذه الطبعة .

والذى ينظر في هذه الموضوعات يتضح له أنها تعالج النفس الإنسانية على أوسع نطاق ، وتتناولها ، من أكثر جهاتها ، وتدرس شتى علاقاتها .

لقد درس فيها النزالي الإنسان مع ربه ، والإنسان مع نفسه ، والإنسان مع غيره من الناس . وتهدف تلك الدراسات إلى استخلاص أسباب السعادة في الدنيا والآخرة ؛ أو معرفة الأسباب التي تكون بها الحياة سبيلا إلى الآخرة ؛ أو تسخير ما منح العبد من إرادة وقوة واختيار ؛ لتكون حجة حين يسلب الحياة والإرادة والقوة والاختيار . أغراض تتلاقى جميعاً ما دامت حياة الإنسان محدودة ، وما دامت لإرادته وقوته واختياره موقوفة بهذه الحياة المحدودة ؛ وما دام العقل والاستدلال والمعرفة تُفنى جميعاً إلى التسليم بالبعث والنشور والحساب والجنة أو النار . وكان الذى حفز النزالي إلى تلك البحوث المستفيضة ما رأى من فتور الاعتقادات في أصل النبوة ، ثم في حقيقة النبوة ، ثم في العمل بما شرحته النبوة ، وتحقيق شيوع ذلك بين الخلق ، فنظر في أسباب الفتور وضعف الإيمان ، فإذا هي أربعة :

١ - سبب من الخائضين في علم الفلسفة .

٢ - وسبب من الخائضين في طريق التصوف .

٣ - وسبب من المنتسبين إلى دهرى التعليم .

٤ - وسبب من معاملة الموسومين بالعلم فيما بين الناس .

وقد تتبع مدة آحاد الخلق ، يسأل من يقصر منهم في متابعة الشرع من شبهته ، ويبحث من عقيدته وسرته ، ويقول له : مالك تقصر فيها ؟

فإن كنت تؤمن بالآخرة ، ولست تستعملها ، وتبيعها بالدنيا ، فهذه حماقة ! فإنك لا تبيع الاثنين بواحد ، فكيف تبيع مالا نهاية له بأيام معدودة ؟

وإن كنت لا تؤمن ، فأنت كافر ! فدبر نفسك في طلب الإيمان ، وانظر ما سبب كفرك الخفى الذى هو مذهبك باطنياً ، وهو سبب جراتك ظاهراً ، وإن كنت لا تصرح به ، تجملأ بالإيمان وتشرفاً بذكر الشرع ! مقاتل يقول : هذا أمر لو وجبت المحافظة عليه لكان العلماء أجدر بذلك ! وفلان من المشاهير بين الفضلاء لا يصلى ، وفلان يشرب الخمر ، وفلان يأكل أموال الأوقاف وأموال اليتامى ، وفلان يأكل إدرار السلطان ولا يحترز من الحرام ، وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة . . .

وقائل ثان يدعى علم التصوف ، ويؤمن أنه قد بلغ مبلغاً يرقى عن الحاجة إلى العبادة .

وقائل ثالث يتطل بشبهة أخرى من شبهات أهل الإباحة .

وهؤلاء هم الذين ضلوا عن التصوف .

وقائل رابع لقي أهل التعليم فيقول : الحق مشكل ، والطريق إليه متعسر ، والاختلاف فيه كثير ، وليس بعض المذاهب أولى من بعض ! وأدلة القول متعارضة ، فلا ثقة برأى أهل الراى ، والداعى إلى التعليم متحكم لا حجة له ، فكيف أديم اليقين بالشك ؟

وقائل خامس يقول : لست أفضل هذا تقليداً ، ولكنى قرأت علم الفلسفة ، وأدركت حقيقة النبوة ، وأن حاصلها يرجع إلى الحكمة والمصلحة ، وأن المقصود من تعبداتها ضبط هوام الخلق ، وتقييدهم عن التقاتل والتنازع والاسترسال في الشهوات ، فأنا من اللعوام والجهال ، حتى أدخل في حيز التكليف ؛ وإنما أنا من الحكماء ، أتبع الحكمة وأنا بصير بها مستغنٍ فيها عن التقليد^(١) . . . ١١

إنك تقرأ هذه الشبه العارضة التي جعلت الدين وقواعد العبادات مجالا للتردد والشك وانصراف هذه الطبقات عن العمل ، والأسباب التي ينتحلها المقصرون ، والأعذار التي يدلى بها الغافلون . وتقرأ في (الإحياء) تنفيذ كل دعوى من هذه الدعاوى ، ودحض كل شبهة من أمثال تلك الشبهات ؛ بطريق النص الثابت ، وبطريق العقل والمنطق الذي يسلم إلى اليقين .

إنك تقرأ في الإحياء بحثاً شبيهة بحقيقة في علم النفس والفلسفة والاجتماع والتصوف إلى جانب ما تطالع فيه من أصول الدين وحقائق التشريع .

وإنك لتقرأ من أصول التأديب وقواعد التربية ومراعاة حال النفس في تلقى العلوم في هذا الكتاب ما يضارع آراء كبار فلاسفة التربية وعلم النفس ، ويكفي أن نشير إلى ما كتبه في « وظائف المرشد المعلم »^(٢) وأنه مهتم اشتغل بالتعليم فقد تقلد أسراً عظيماً وخطراً جسيماً فليحفظ آدابه ووظائفه التي نعمت عليه :

(١) الشفقة على المتعلمين ، وأن يجريهم مجرى بنيه . . .

(٢) الاقتداء بصاحب الشريعة الشريف ، فلا يطلب على إفاضة العلم أجراً ، ولا يقصد به جزاء ولا شكراً . . . فإن المال وما في الدنيا خادم البدن ، والبدن مركب النفس ومطيتها ، والخدوم هو العلم إذ به شرف النفس ، فمن طلب بالعلم المال كان كمن مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفه ، فجعل الخدوم خادماً والخادم مخدوماً ، وذلك هو الاشتكاس . . .

(٣) ألا يدع من يصح المتعلم شيئاً ، وذلك بأن يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها ، والتشاغل بعلم خفي ، قبل الفراغ من الجلي ، ثم ينبه على أن الغرض بطلب العلوم القرب إلى الله تعالى ، دون الرياسة والمباهاة والمنافسة ، ويقدم تقبيح ذلك في نفسه بأقصى ما يمكن . . .

(٤) ومن دقائق صناعة التعليم أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التريض ما أمكن ، ولا يصرح ، وبطريق الرحمة ، لا بطريق التوبيخ ، فإن التصريح بهتك حجاب الهيبة ، ويورث الجراءة على الهجوم بالخلاف ، ويهيج الحرص على الإصرار .

(٥) أن التكفل ببعض العلوم ينبنى ألا يقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراهه ، كعلم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه ، ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير ، وأب ذلك نقل محض وسماع وهو شأن المعائز ولا نظر للعقل فيه ، ومعلم الكلام ينفر عن الفقه . . . فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ينبنى أن تجتنب ، بل للتكفل

يُعلم واحد ينبغي أن يوسع على المتعلم طريق التعلم في غيره ، وإن كان متكفلاً بعلوم فينبغي أن يراعى التدريج في ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة .

(٦) أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله فينفره ، أو يخط عليه عقله . فليست إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها ، ولا ينبغي أن يفتش العالم كل علمه إلى كل أحد ، ولذلك قيل : **كُلُّ لَكُلٍّ هَدٍ بِمِيسَارِ عَقْلِهِ** ، وزِنْ لَهُ بِمِيزَانِ فَهْمِهِ ، حتى تسلم منه وينتفع بك ، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المياري .

(٧) أن المتعلم القاصر ينبغي أن يلقى إليه الجليّ اللائق به ، ولا يذكر له أن ورامه تدقيقاً يدخره عنه ، فإن ذلك يفتر رغبته في الجليّ ، ويشوش عليه قلبه ، ويؤم إليه البخل به عنه .

(٨) أن يكون المعلم عاملاً بعلمه ، فلا يكذب قوله فعله ، لأن العلم يدرك بالبصائر ، والعمل يدرك بالأبصار وأرباب الأبصار أكثر ، فإذا خالف العملُ العلمُ منع الرشد . وكل من تناول شيئاً وقال للناس : لا تتناولوه فإنه سم مهلك ، سخر الناس به واتهموه ، وزاد حرصهم على ما نهوا عنه ، فيقولون : لولا أنه أطيب الأشياء والأدواء لما كان يستأثر به .

وما بسطه الغزالي في هذه الآراء هو ما يقوله المربون المحدثون في الانتقال بالمتعلمين من الجليّ إلى الخفيّ ، ومن السهل إلى الصعب ، ومن البسيط إلى المركب ، وما يقوله علماء النفس في الإدراك وأثر الحواس .

وتجد هذا الكتاب زائراً يمثل هذه الدراسات ، حتى إنك لتشعر حين تقرأها بالحاجة الملحة إلى دراسة « الغزالي المربي » وسيجد الدارس مادة واسعة الأطراف ، لا تتسع تلك الصفحات لا مستقصاتها ، ولكننا نجتزئ بهذه الإشارات إلى ما حوت تلك الأصداف من كنوز .

— ٤ —

ودراسة صلة الإنسان بخالقه دراسة لأصول العقائد والمبادئ التي فرضها عليه ، والتي يلتزم بها الزاني إليه . وقد أشرنا إلى الموضوعات التي درسها في تلك الأصول . وبقى أن تذكر أن الغزالي لم يكن في تلك العبادات يذكر أحكام الشرع كما يفعل الفقهاء في دروسهم وفي تصانيفهم ، ولكنه أضاف إلى تلك كثيراً من البحوث الروحية والنفسية والعقلية ، ونصق في فهم أسرارها وحكمها وسبل إجادتها وتخليتها من الشوائب بدرجة لم يسبق لها مثيل ، وفي استيعاب ليس له نظير .

فليست (الطهارة) عند الغزالي كما هي عند الفقهاء : طهارة من الحدث تختص بالبدن ، وطهارة من الخطيئة تكون في البدن والثوب والمكان ، فإن هذه مرتبة واحدة منها . والمرتبة الثانية عنده : تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام ، والثالثة : تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والذائل المفقوتة . والرابعة : تطهير السر عما سوى الله تعالى ^(١) ، ثم يفيض بعد ذلك في ألوان هذه الطهارات وأسبابها ووسائلها وغاياتها ، مع ما يوافق الحقيقة التي

(١) الإحيا ١٣١/١ من هذه الطبعة .

يدعو إليها ، والشريعة التي فيها وأجاد نحصيلها ، والعقل الذي عرف موارده ومصادره .
(و) الصلاة) عنده مناجاة ، والمصلى مناجر به عز وجل ، والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة البتة - وإذا كان الفقهاء يفتنون بصحة الصلاة مع الغفلة ، فإن النزالي يتأدب في الرد عليهم ، ولا يطمع في مخالفتهم فيما أفتوا به ، وبمثل بأن ذلك من ضرورة الفتوى .

ولكن الذي يعرف سر الصلاة يعرف أن الغفلة تضادها ، ثم يفرق بين العلم للظاهر والعلم الباطن ، ويرى أن قصور الخلق أحد الأسباب المانعة عن التصريح بكل ما ينكشف من أسرار الشرع ^(١) .

ورأيه في (الزكاة) أن التلفظ بكلمتي الشهادة التزام للتوحيد ، وشهادة بإفراد المعبود ؛ وشرط تمام الوفاء به ألا يبقى للوحد محبوب سوى الواحد الفرد ، فإن الحجة لا تقبل الشركة ، والتوحيد باللسان قليل الجدوى . وإنما يمتحن به درجة الحب بمقارفة المحبوب ، والأموال محبوبة عند الخلائق ، لأنها آلة تتمهم بالدنيا ، وبسببها يأنسون بهذا العالم ، وينفرون عن الموت ، مع أن فيه لقاء المحبوب . فامتحنوا بتصديق دعواهم في المحبوب ، واستنزوا عن المال الذي هو مرقومهم ومعشوقهم ولذلك قال الله تعالى : ﴿ إِنْ أَنْفَقْتُمْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ أَنْفُسَكُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمْ أَجَلٌ ﴾ وذلك بالجهاد . . . والذين صدقوا التوحيد ووفوا بعهدهم ، نزلوا عن جميع أموالهم ، فلم يدخروا ديناراً ولا درهماً ، فأبوا أن يتعرضوا لوجوب الزكاة عليهم . بحق قيل لبعضهم : كم يجب من الزكاة في مائتي درهم ؟ قال : أما على العوام بمحكم الشرع خمسة دراهم ، وأما نحن فيجب علينا بذل الجميع ^(٢) .

وهكذا نجد أنفسنا دائماً ونحن نجول في (الإحياء) أننا أمام عالم كبير عرف الشرع وحفظه وقصه وعمل به ، ورأى وراء هذا التشريع العام الذي ينظم المسلمين جميعاً ؛ تشريعاً خاصاً هو في حقيقته أثر لذلك التشريع العام وتمكينه له ، وهذا الخاص فضل وزيادة وناقلة بعد أداء الفروض التي لم بغفل (الإحياء) ركنا من أركانها أو سنة من سنتها .

وهذا هو التصوف المستنير الذي أشرنا إليه ، تجدد فيه الحجة البالغة ، وتجدد فيه التقوى والورع وقطع الملائق بالناس وبالمال وبالجاه وبالولد وبالمنصب ، بل قطع علائق النفس بما تحبه وتحرص عليهم .

في تلك الدراسات يجد المتفقه رغبته ، ويجد المتصوف طلبته ، ويجد صاحب العقل والباحث عن اليقين ما شاء من حجة بالغة وبرهان مستبين ، وبهذه السعة وبذلك الشمول أحيا النزالي علوم الدين ، أحياها في الحياة المضطربة الجادة للعامة ، والمأجنة الهازلة ، وأحياها في نفوس الزهاد ورجال الطريق ، ووصل بينهما وبين حكمة العقل والمنطق التي تفضي إلى الصحيح من النتائج ، وتلزم الشاك المتردد بالإذعان والتسليم وصدق الاعتقاد .
والناس عند النزالي ثلاثة أصناف ، ولكل صنف منهم أسلوب خاص يعالج به ما عنده من الجهل أو الشك أو النور .

(١) أما الصنف الأول : فهم (العوام) ، ويصفهم بأنهم البُلهُ ، وبأنهم أهل السلامة . وهؤلاء هم الذين ليس لهم فطنة لفهم الحقائق . وهم يُدعون إلى الله بالموعظة .

(٢) والصنف الثاني : (الخواص) ، وهم أهل الذكاء والبصيرة ، وفيهم ثلاث خصال : إحداها القريحة النافذة والفطنة القوية ، وهذه عطية فطرية وغريزة جبرائية لا يمكن كسبها . الثانية : خلوص باطنهم من تقليد وتمسك بالذهب موروث مسموع ، فإن التقليد لا يضيئ ، والبلبلد وإن أصفى لا يفهم . الثالثة : أنه يؤمن أن أستاذه (الغزالي) من أهل البصيرة بالميزان ، ومن لم يؤمن بأنك من أهل الحساب لا يمكنه أن يتعلم منك . وهؤلاء يعالجهم الغزالي بأن يعلمهم الموازين القسط وكيفية الوزن بها ، فيرتفع الخلاف بينهم عن قرب ، ويدعومهم إلى الله بالحكمة ، كما دعا العوام بالموعظة الحسنة ، كما قال الله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ . فلم أن المدعو إلى الله تعالى بالحكمة قوم ، وبالموعظة الحسنة قوم ، وبالمجادلة قوم . فإن الحكمة إذا غذى بها أهل الموعظة أضرت بهم ، كما تضر بالطفل الرضيع التغذية بلحم الطير . وكذلك المجادلة إن استعملت مع أهل الحكمة اثنمازوا منها ، كما يشتمز طبع الرجل القوى من الارتضاع بلبن الأم .

(٣) والصنف الثالث : (أهل الجدل) ، وهم طائفة فيهم كياسة رقوا بها عن العوام ، ولكن كياستهم ناقصة إذا كانت الفطرة كاملة ولكن في باطنهم خبث وعناد وتمسك وتقليد ، فذلك يمنهم عن إدراك الحق ، وتكون هذه الصفات أكنة على قلوبهم أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً . وهؤلاء يدعوم بالتلطف إلى الحق ، من غير أن يتمسك عليهم أو يمنهم ، ولكنه يرفق بهم ، ويمجادهم بالتي هي أحسن .

لقد نظر إلى كل طبقة من الطبقات التي يتكون منها المجتمع الإسلامي ، وعرف فلسفتها في الحياة وما تعالجه من أسباب السعادة ، وما تعانيه من أسباب الشقاء في الفكر والعمل ، ولا نعرف هذه السعة وذلك الشمول على هذا النحو مثل ما نجدهما في إحياء علوم الدين .

ويمكن أن يلحق بصدق الاعتقاد وأصول العبادات - وهما كما قد منا صلة بين الإنسان وربه وقيام بطاعته وامتنال لأمره ونهييه وفيها دلالة على المحبة - ما كتبه في الريح الرابع من الإحياء ، وهو (ربح المنجيات) لأنه يختص بتصفية النفس من الشوائب وتطهيرها من الآثام ، والارتقاء بها إلى درجة المعرفة ، وفيه من أصول التصوف ومبادئ الشريعة الكثير .

ومقدمة (التصوف) التوبة هما اقترفه العبد قبل أن يسلك طريق المعرفة ، ثم آداب السلوك وهي : الصبر ، والشكر والخوف ، والرجاء ، والفقر ، والزهد ، والمحبة ، والشوق ، والأنس ، والرضا ، والتوحيد ، والتوكل ، والمراقبة ، والمحاسبة ، والتفكير ، والنية ، والإخلاص ، والصدق .

وقد تبدو هذه الصفات من قبائل الفضائل العامة ، التي ينبغي توافرها في الإنسان الفاضل ؛ ويطلب الناس جميعاً بالتزامها ، ماداموا يتطلعون إلى منزلة الفضل ؛ وهذا صحيح لا شك فيه . ولكن الفضلاء قد يحسبون كذلك ببعض تلك الصفات ، أو بتحصيل القليل من بعضها ، أما أهل الطريق المتطلعون إلى المعرفة فإنهم يجمعونها جميعاً

ويصلون بها إلى أقصى درجاتها ؛ وهم يجاهدون نفوسهم جهاداً عنيفاً ، ويحملونها على ما تنكره ، مما يملأه غيظهم وإسرافاً ومهتاً ، ولا يمتثلون بالضرورات ، بل يحاسبون أنفسهم حساباً عسيراً ؛ ولا يبنون لسلك الطريق أن يهملها فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي ، وأنست بها نفسه ، وهسر عليه فطامها ، وكان ذلك سبب هلاكها . « بل يبنون أن يعاقبها فإذا أكل لقمة شبة بشهوة نفس يبنون أن يعاقب البطن بالجوع ، وإذا نظر إلى غير محرم يبنون أن يعاقب العين بمنع النظر ، وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته . هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة ، فقد روى أن رجلاً من الصالحين كرم امرأة ، فلم يزل حتى وضع يده على فخذه ، ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبت ، ويمكن أن أحدم تكشفته جارية ، وهو في بعض المنازي ، فنظر إليها ، فرفع يده فلم يعلم عينه حتى بقرت ، وقال : إنك لمعاذلة إلى ما يضرك ! ونظر بعضهم نظرة واحدة إلى امرأة ، فجعل على نفسه ألا يشرب الماء البارد طول حياته ، فكان يشرب الماء الحار لينقص على عيشه » (١) .

ففي هذا الرجب ، رجب للمنعجات ، يظهر ما يعلى به القلب من الصفات الحمودة التي ذكرت ، وهو يقابل ما في الرجب الثالث ، رجب المهلكات ، الذي بسط فيه ما نجب تزكية النفس وتطهيرها منه ، وهي شرور وآثام مردية ، كالشر والنصب والكبر والرياء والمعجب والمحد وحب الجاه وحب المال وغيرها .

وقد قدم (المهلكات) على (المنعجات) لأن الأولى تطهير ونخلة ، والثانية تزكية ونخلة ، والأولى في أصول القرية والتهديب مقدمة على الثانية . ولأن العبد لا منجاة له من الوقوع فيما ذكره في المهلكات ، ولكن في استطاعته النهوض منها وجبرها بالمنعجات ، ولأن التجرد للخير المحض دأب الملائكة المقربين ، والتجرد للخص الشر دون العمل على تلافيه سجية الشياطين ، ولكن الرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الأدميين .

وبعد فإن كتاب « إحياء علوم الدين » جامع عقليات ثلاث :

(١) : العقيلة الشرعية : وتبدو آثارها فيما بسطه النزالي من أحكام الفقه وأصوله ، وما اعتمد عليه من نصوص القرآن الكريم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة والتابعين ، ومذاهب الأئمة رضي الله عنهم ، وأقوال الفقهاء وعلماء الشرع والحديث والتأويل ، وهو بعد أصول العلوم الشرعية أربعة : كتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله عليه السلام ، وإجماع الأمة ، وآثار الصحابة . ويرى أن كتب الفقه تبحث في الحياة

الأولى ، وأن الفقهاء هم علماء الدنيا ؛ وعلى ذلك بأن الناس لو تنازلوا الدنيا بالعدل لاحتطمت الخصومات وتطلت الفقهاء ، ولكسهم تنازلوها بالشهوات ، فتولدت منها الخصومات ، فست الحاجة إلى سلطان يسوسهم ، واحتاج السلطان إلى قانون يسوسهم به ، فالفقيه هو العالم بقانون السياسة ، وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا ، وهو مسلم السلطان ، ومرشده إلى طريق سياسة الخلق وضبطهم ، لتنظم باستقامتهم أمورهم الدنيوية . والملك والدين توأمان ، والدين أصل ، والسلطان حارس ، ومالا أصل له فهو دم ، ومالا حارس له فزائع ^(١) .

ولا يسلم له هذا الرأي كاملاً ، لأنه إن استقام في أحكام الجراحات والحدود والفرمانات وفصل الخصومات ، فلا يستقيم فيما يشتمل عليه ريع العبادات من الصيام والصلاة ، ولا فيما يشتمل عليه ريع العادات من المعاملات من حيلان الحلال والحرام .

والذي دعاه إلى هذا الوصف أنه جعل هذا العلم علمين : أحدهما يتصل بمصالح الدنيا ، والثاني يتعلق بمصالح الآخرة ، وهو علم أحوال القلب وأخلاق الحمودة والمذمومة وما هو مرضى عند الله تعالى وما هو مكروه ، وهو الذي خص به الكتاب الثالث من الإحياء . والحمود هنا غير فرض الطاعة ، والمذموم هنا أيضاً غير المعصية ، فإن الطاعة واجبها ، والمعصية عقابها . ولكن الرضى في علم الآخرة هو ما يقرب إلى الله ، ثمرة للمعرفة السكاملة ، والفناء ، وقهر النفس وزكيتها .

ومثال ذلك الصلاة ، فإن الفقيه يفتى بالصحة إذا أتى بصورة الأعمال مع ظاهر الشروط ، وإن كان غافلاً في جميع صلاته من أولها إلى آخرها ، مشغولاً بالتفكير في حساب معاملاته في السوق إلا عند التكبير . ولكن هذه الصلاة لا تنفع في الآخرة ، كما أن القول باللسان في الإسلام لا يرفع ، ولكن الفقيه يفتى بالصحة ، أى أن ما قيل حصل به امتثال صيغة الأمر ، وانقطع به عنه القتل والتعزير ، فأما الخشوع وإحضار القلب الذي هو محل الآخرة ، وبه ينفع العمل الظاهر ، فلا يتعرض له الفقيه .

وعلى كل حال ، فإن النزاع وإن عدا الفقه علم الدنيا والفقهاء علماء الدنيا ، فقد درس في الإحياء هذا العلم ، علم الفقه ، دراسة مستفيضة تدل على الفهم والاستيعاب ؛ إذ كانت الشريعة سلم الحقيقة ، والعبادة سبيل للرفعة الحقبة التي نشدها وعدة من رجالها .

(٢) المقابلة الفلسفية : ونعني بها نقطة العقل ، والقدرة على التبصر ، وفهم الكون بظواهره وشواهد ، ومحاربة الوصول إلى أعماقه ، وإلى سر الحياة والأحياء ؛ ودراسة النصوص دراسة تخضع لأحكام العقل والتفكير ؛ والتغلب على الأخطاء الشائعة ، والتقاليد التي تعارض المنطق السليم والتفكير الصحيح .

وقد أشرنا فيما سبق إلى نزوع الفزالي إلى التحرر ، وفوره من التقليد الذي لا فضل فيه للمقلد ، وفي الإحياء كثير من الشواهد على ذلك .

فقد بحث الفزالي كثيرا من المسائل الفلسفية ، ومسائل علم الكلام ، التي تتصل بالله تعالى وذاته وصفاته ، كما بحث في أعمال المبد ، ومبدأ الخلق وفاته .

ومن ذلك البحث الفلسفي الذي عقده في « ربيع المهلكات » في شرح عجائب القلب ، وفي بيان معنى النفس والروح والعقل ، وما هو المراد بهذه الأسماء .

فلفظ (القلب) له معنيان : أحدهما : اللحم الصوري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر ، وهو لحم مخصوص وفي باطنه تجويف ، وفي ذلك التجويف دم أسود . . . الخ .

وللمعنى الثاني للقلب : أنه لطيفة ربانية روحانية ، لها بهذا القلب الجسماني تعلق ، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان ، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان ، وهو المخطب والمعاقب والمغالب والمطالب . . وتعلقه بالعقل الجسماني يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام ، والأوصاف بالموصوفات ، أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة ، أو تعلق المتمكن بالمسكان . . .

و (الروح) جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني ، فينشر بواسطة العروق الضواري إلى سائر أجزاء البدن ، وجريانه في البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها ، يضاهي فيضان النور من السراج في زوايا البيت ، فإنه لا ينتهي إلى جزء من البيت إلا استنار به . والحياة مثالها النور الحاصل في الخيطان ، والروح مثالها السراج ، وسريان الروح وحركته في الباطن مثال حركة السراج في جوانب البيت بتحريك محركه ، والأطباء إذا أطلقوا لفظ (الروح) أرادوا به هذا المعنى ، وهو بخار لطيف أنضجته حرارة القلب والروح معنى آخر ، وهو اللطيفة المائلة للدركة من الإنسان ، وهذا هو أحد معني القلب .

وللفظ (النفس) معان كثيرة ، ومن تلك المعاني ما يريد به أهل التصوف في استعمالهم ، وهي الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان ، وهي المعنى الجامع لقوة الشهوة والغضب في الإنسان ، فإنك تزام يقولون : لا بد من مجاهدة النفس وكسرها ، وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله عليه السلام « أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك » . ومن معانيها نفس الإنسان وذاته ، ولكنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها .

ثم (العقل) وقد يطلق ويراد به العلم بمقتضى الأمور ، فيكون عبارة عن صفة العلم الذي يحله القلب . وقد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب .

هذا شيء قليل نشير به إلى جهاد الغزالي في تلك الدقائق التي حيرت المفكرين وشغلت الفلاسفة، وقد عرض لها من قديم فلاسفة اليونان، ولا تزال إحدى مشكلات الفلسفة المعاصرة . ولكلام الغزالي ودراسته مكان ملحوظ بين تلك الدراسات قديمها وحديثها .

ثم الفلسفة الأخلاقية ، وقد أقاض فيها في المنجيات والمهلكات والعادات ، وقد عرض فيها للفضائل الإنسانية على نحو لم يسبق له مثيل في القديم والحديث . وما بالك برجل يعالج الفضائل السكينة والرضا المستقرة ، فضلاً عن الأخلاق الظاهرة والسلوك الملحوظ . ولا نحب أن نستشهد على ذلك بشيء من النماذج ، فإن المطالع لا كثر أبواب الإحياء يجد فيها مصداق ما نقول .

(٣) المقايمة الصوفية : ظهر للغزالي أنه لا مطمع له في سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافى عن دار الفرور ، والإناية إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال والحرب من الشواغل والملايق .

ثم لاحظ أحواله فإذا هو منغمس في الملايق . ولاحظ أحواله - وأحسنها التدريس والتعليم - فإذا هو فيها مقبل على علوم غير مهمة ، ولا نافعة في طريق الآخرة . ثم تفكر في نيته في التدريس فإذا هي غير خالصة لله تعالى ، بل باعها ومحررها طلب الجاه وانتشار الصيت ، فتبين أنه على شفا جرف هار ، وأنه قد أشقى على النار ، إن لم يشتغل بتلافي الأحوال ^(١) .

وقد رأى المعلوم ألقى حصلها لا تجدى فيما أراد ؛ إلا بنفحة من الله الذي يهب من يشاء من عباده الإيمان والمعرفة ، ورأى ذلك محتاجاً إلى جهد ومشقة ، وعلم وعمل .

وقد ساق الغزالي كثيراً من شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف في اكتساب المعرفة ، لا من التعلم ، ولا من الطريق المعتاد ^(٢) ، من ذلك قوله تعالى « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » أي مخرجاً من الإشكالات والشبه ، ومعنى يرزقه من حيث لا يحتسب : يطلع علماً من غير تعلم ، وينفذه من غير تجربة . . . وقال صلى الله عليه وسلم « اتقوا فراصة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » . . . وروى الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « العلم علان فعلم باطن في القلب ، فذلك هو العلم النافع . . . » وستل بعض العلماء عن العلم للباطن ما هو ؟ فقال : هو سر من أسرار الله تعالى يقذفه في قلوب أحبائه لم يطلع عليه ملكاً ولا بشراً . . . وفي الحديث « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ، ووقفه فيما يعمل حتى يستوجب الجنة . . . » .

(١) الغزالي : المنفذ من الضلال ١٢٨

(٢) الإحياء ١٢/٣ .

وقد أورد كثيراً من الأدلة التي تؤيده في إمكان الكشف والإلهام بنير الأسباب الظاهرة ، مما وقع للخلفاء الراشدين وأهل التقوى والورع والزهد والتصوف . وهذا هو العلم الدني ، وهو غير العلم الدنوي الذي يكون بوسائط تعليم الخلق .

وسبيل هذا العلم مشقة وجهاد ، وحمل النفس على مالا تطيقه أكثر النفوس ، ولقد كتب الغزالي في هذا الجهاد كثيراً حتى زخر « الإحياء » بالتصوف ، أكثر مما زخر به من أصول التشريع ، حتى هذا التشريع قد يكون درجات ومفاهيم عند المتصوفة تختلف عنها عند غيرهم .

وما بالك رجل يجعل الدرجة السفلى من الزهد أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدي العبد من الأهوال . وبسميه (زهد الخائفين) ؟ ويجعل الدرجة الثانية (زهد الراجين) لأنهم يزهدون رغبة في ثواب الله ونعيمه والذات الموعودة في جنته . أما الدرجة العليا عنده فهي (زهد المحبين) وهم العارفون ، لأنه لا يحب الله تعالى إلا من عرفه ، وزهدهم ليس من رغبة إلا في الله وفي لقائه فلا تلتفت قلوبهم إلى الآلام ليقصدوا وإخلاص منها ، ولا إلى الذات ليقصدوا نيلها والظفر بها .. وهذا هو الزهد الحقيقي والتوحيد الحقيقي الذي لا يطلب فيه غير الله ، لأن من طلب غير الله فقد هبته ، وكل مطلوب مسبود ، وكل طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه ، وطلب غير الله من الشرك الخفي .

وما أكثر ما يزخر به الإحياء من آثار التصوف ، مما يدل على تشيع الغزالي بفكرته وإيمانه بأنه الطريق الموصل إلى المعرفة بالله والقرب من رحته ، وتجدر أن هذا التشيع والفهم العميق لفلسفة التصوف في أبواب كثيرة نخص بالذكر منها الجزء الرابع من هذه الطبعة في (ربيع النجيات) في أبواب الخوف والرجاء والصبر والشكر والفقر والزهد والتوحيد والتوكل والمحبة والشوق والأنس والرضا ... الخ .

ﷺ

وأخيراً ...

لك بعض إشارات إلى التبايع الطاهرة والمناهل الصافية ، التي يفيض بها هذا الآثر الخالد ، يقصد إليها الصالحون والمفكرون من طلاب الشريعة وطلاب الحقيقة ، والباحثون في أسرار الاعتقاد وحقائق الإيمان والأعمال وقواعد السلوك ، ليجدوا فيها غذاء لقلوبهم ، ورياء لظمئهم ، وشفاء لأفواه قلوبهم ، ونهيداً لظلمات الحيرة في غموسهم وأماناً في سلوكهم ، ونجاة من موبقات هذا الدراب الأعاذ في دنيا الباطل والضلال ، وسبيلاً إلى السعادة بالمرقة للنفسة والحكمة للبائنة .

وقد كتبت هذه الكلمات استجابة للرغبة الكريمة التي أبدتها (دار إحياء الكتب العربية) في تقديم هذه الطبعة من (إحياء علوم الدين) التي عظم نعمه ، وعت بركته ، منذ كتبه حجة الإسلام القرطبي ، الذي نثر به عالمًا بدين الله ، ومؤمنًا بالله ، وداعيًا إلى الله ، ونثر به مسلماً من أولى البصيرة واليقين ، وطاماً من أعلام الصوفية وفلاسفة الإسلام .

وأقمت على هذا الصمد . مستعيناً بالله ، حق وفق إلى هذه الكلمات ، التي أرجو أن تكون مفتاحاً لكشف عن شخصية القرطبي وعقليته ومطرقه ، وما بث في (الإحياء) من آيات الهدى والحكمة .
والحمد لله على ما هدنى إليه ، وأطمن عليه ، له الحمد في الأولى والآخرة . نعم المولى ونعم النصير .

بروق المطباعة

مصر الجديدة { ٣ من جادى الأول سنة ١٣٧٧ هـ
٢٥ من نوفمبر سنة ١٩٥٧ م



مواد المقدمة

- صفحة
- (١) تمهيد في التصوف الإسلامي ٣ - ٧
- تعاليم الإسلام - المسلم بين الدنيا والآخرة - المسلمون في الصدر الأول - صراع بين المادية والروحية - عودة إلى الله - البحث عن الحقيقة - السلبية في بعض مناهج التفكير - ألوان جديدة من المعرفة .
- (٢) الإمام الغزالي ٧ - ١١
- مولده ونشأته - أبوه - علم للحياة وعلم لله - في طوس - في جرجان - في نيسابور - في المعسكر - مع نظام الملك - إلى بغداد - في المدرسة النظامية - صدود عن المنصب والجاه - في الشام وبيت المقدس - إلى مكة والمدينة - تنسكه - عودة إلى خراسان - العزلة والخلو - أمر بالخروج إلى نيسابور للتدريس - عودته إلى طوس - وفاته .
- (٣) الشك عند الغزالي ١١ - ١٨
- اختلاف مناهج البحث في العقائد - التعصب للآراء - الغزالي والتقليد - سبل للمعرفة: الحسيات والعقليات - عقبات تفتض طريقهما - آراء الفلاسفة والطبيعيين في إثبات التفكير الإسلامي - ليس الكشف موقوفاً على الأدلة المحررة - فلسفة الغزالي وتصوفه - الغزالي بين الابتداع والاتباع .
- (٤) مناهج البحث عن الحقيقة ١٨ - ٢١
- الغزالي وعلم الكلام - الغزالي والفلسفة - الغزالي ومذهب التعليم - الغزالي والتصوفية - مزايا كل منهج وعيوبه .
- (٥) آثار الغزالي ٢٢ - ٢٣
- (٦) كتاب (إحياء علوم الدين) ٢٣ - ٢٨
- متى حدث به ؟ - متى ألفه ؟ - بين التحصيل والإلهام - لماذا ألف الإحياء ؟ - الفرق بين كتابة الغزالي وكتابة الذين سبقوه .
- أقسام الإحياء : العبادات - العادات - المهلكات - للنجيات - أسباب الفتور وضعف الإيمان - الإحياء والتربية - صنوف الناس في نظر الغزالي وما ينبغي أن يؤخذ به كل صنف - الشريعة والفلسفة والتصوف في الإحياء - خاتمة .